فجر أزرق

الخير من أنفسكم

والشر من أنفسكم

علينا الاعتراف أن كل هذا الجحيم صنعناه بأيدينا

رأيت فيك كل العابرين ’ ولم أراك في أحد منهم ’ لست تأتي ’ ولست تغيب ’ كأنك لعنة حلت بي.

مجانين المدينة أدمنوا الوجع، والبؤس يتهافت غيمةً غيمة، العيون تطرح آلاف الأسئلة بينما الأجوبة تضيع من كبر ما ترى،

رائحة الورود سحقتها الأحذية المجرورة بالأقدام المتعبة، والخيبة طقس ملازم لكل التفاصيل.

جروح الجسد قد يعالجها الكي، ولكن ما الذي قد يعالج التشوهات في الروح؟ وكل تلك المجازر فيها.

لا الدين عادل، ولا القوانين عادلة، أنيابنا إن طالت تجرحنا، فلم نعتد عليها.

الضعف توأم القوة، والحياة توأم الموت، والفرح توأم الحزن.

الليل هجرة مؤقتة للأرواح، هجرة يهشمها الواقع بعد حين، سفن الحقيقة لا ترسو!

الأعمى لا يستحق الشفقة بقدر ما يستحقها البصير.

الحب عطالة مؤقتة للعقل، والحذر من استيقاظ يحيل بناؤك رماداً.

الحزن على الوجوه المتعبة، فراش منجذب الى النور.

الضياع هو الوقوف في الوسط، وهو قمة العدل.

لا يوجد إنسان متسامح، بل يوجد إنسان لا يستطيع أن يأخذ بحقه.

لطالما كانت هذه الأرض عذراء إلى أن وجد الإنسان عليها، لتكون خطيئته الأولى قتل أخاه ليستمر بعدها هذا الطقس المقيت ملازماً كل تلك التفاصيل الجنائزية، ليقدم الإنسان العزاء بمشاعره قبل حتى أن تخلق رغبته المفرطة في أن يخرج من نفسه.

أسألته التي ما انفك يرددها ببلادة رغم وجود كل التفاصيل والأجوبة:

- كيف لك ان تقف وسط كل هذا الركام؟ وأن تشعل لفافة تبغك وكأن كل شيء على ما يرام!
- كيف لك أن تبتسم؟ أنظر أمامك واجه هذه الحقيقة واجهها بأن تعترف بها، وقبل كل هذا قف عند خياراتك وتذكر خياراتك كلها،

هل من نتيجة لم تختار أسبابها بنفسك؟

- لو عاد بك الزمن الى الوراء ألن تفعل ذات الشيء؟

لم كل هذه الحيرة على وجهك؟

- هل قررت أن تعترف أخيرا بأنك سبب كل هذا؟

بالطبع لن تفعل، كلنا لن يفعل ذلك، كيف لنا أن نكون السبب؟ ونحن منذ الأزل خُلقنا وصنعنا الإله ليكون شماعة تعلق عليها كل أخطائنا. نعم عليك أن ترى نفسك الضحية، الصديق مذنب بحقك وكذلك الحبيب والأهل وجميع من عرفت، حتى من كنت مذنب بحقهم.

نعم لن تعترف، كيف تصبح جلاد أمامهم؟ حتى لو كنت تعرف ذلك في مكامن نفسك.

أنصت الي ..

لا شأن لأحد بما يحصل معك.

لا الشيطان ولا حتى الإله.

كل شيء منوط بالخيارات، التي تكون سبب لكل النتائج.

في السنة السابعة للحرب في بلاده.

يحث رامي خطاه الى المقهى وسط طوفان بشري في الطريق، ملامح البؤس اعتلت وجوههم، يعتقد جازماً بأنه يعرف كل ما يدور في عقولهم.

تعددت النتائج والسبب واحد، قد يكون في ذلك تعدي على قوانين الفيزياء ولكن عندما تكون الحرب سبباً، ماذا تتوقع أن تكون النتائج؟

أوقفته طفلة في الحادية عشر من عمرها تبيع الزهور، رغم كل ثيابها الرثة وشعرها الأشعث إلا ان البراءة في وجهها تخبرك أنها لا تزال طفلة.

- هل تأخذ وردة لها؟ انظر اليها وشمها لقد قُطفت صباح اليوم وأنا متأكدة أنها ستعجبها فهي زاهية جداً.
- كم ثمنها أيتها الجميلة؟

قالها رامي وأخذ الوردة التي أعطته إياها.

- هل تكفي مئتان ليرة؟
- نعم يا سيدي هذا كثير!

أخرج رامي محفظته يخرج النقود وقال:

- ما اسمك؟
- جلنار.

أعطاها رامي المال وأكمل:

- اسم جميل يا جلنار

حثت خطاها تبحث عن زبون آخر، أوقفها صوت رامي:

- يا جلنار.

عادت إليه

- هذه الوردة لك فأنا لن ألتقي بها مجدداً، هي لم تعد موجودة.

لقد ألف الكثيرين صورتها وهي تمر كل يوم في أحياء دمشق المكتظة وفي محلاتها ومقاهيها.

لقد توقفوا عن سؤالها لماذا هي خارج المدرسة؟ وما الذي يجبرها على هذا العمل في الصيف والشتاء؟ وقد راقها هذا قليلاً.

نعم لقد توقف الناس عن طرح الأسئلة منذ، وهي لم تعد بحاجة للإجابة بشكل متكرر عن السؤال نفسه.

هي اليوم تبحث عن الأجوبة أكثر من أي وقت آخر، لعل الأجوبة لم تكن بالقدر الكافي ولكن الحصول على الجواب دون أن تسأل يجعلها تكبر أسرع، وتفهم أكثر.

في المقهى كان الزبائن من طبقات مخملية، توزعوا على الطاولات، شبان وفتيات تعالت ضحكاتهم بينما اقتربت فتاة تعمل هناك من رامي ورحبت به:

- هل أنت وحدك وأين ترغب بالجلوس؟
- لطالما كنت وحدي، هل لديكم طاولة بعيدة عن هذه الضحكات؟
- نعم بالتأكيد في الطابق الثاني تفضل.

مشي رامي الى الأعلى عبر الدرج تسبقه الفتاة الى أن وصلا الطابق المنشود.

كتلتان من الهلام جلسا على طاولة بالقرب من النافذة، لولا شعر أحد الكتلتين، لما علم انهما شاب وفتاة.

اختار طاولة، وضع لها مقبس كهرباء وجلس وأخرج حاسوبه المحمول.

- ماذا تحب أن أجلب لك؟

قالتها الفتاة مبتسمة بلهجة ناعمة.

- هل تستطيعي أن تجلبي لي ابتسامة كهذه؟

لم تعرف الفتاة ماذا تجيب، عدا أن اختفت ابتسامتها.

- إذاً لتكن قهوة بلا سكر لو سمحتي.

_ حاضر.

سجلت الفتاة الطلب وذهبت الى الأسفل بينما قام رامي بتشغيل حاسبه ووصله بالمقبس وفتح مستند كتابي.

بدأ يكمل كتابة نصه، وبدأ سطره بكلمة

الحب.

كل هذه السذاجة، وأن تحب نفسك ضعيفا، ومثيرا للشفقة، أن تسهر ليال طوال لسبب اخرق او نقاش تافه، ان تخرج من جلدك ومن افكارك، ان تلبس قناع لا يشبهك، كل ذلك وأكثر من اجل فقط ان تكون محبوبا.

ان تعيش قصة قد قرأتها في رواية ما، أو شاهدتها في فيلم.

احذر ان تحب يا صديقي، قد لا يكون بمقدورك ان تمنع نفسك عن الحب، ولكن أقله لا تظهر حبك لأحد، فذلك يعزز نسبة اصابتك بالخيبة وشعورك بالضعف، فمن قد يعلم نقاط ضعفك كلها سواك؟

نعم وشخص آخر، بالتأكيد عرفت من أقصد.

باستطاعتك ان تحب الجميع فحبك للجميع هو امر عقلاني ومتوازن، لكن أن تمنح كل ذلك الحب والعاطفة لشخص واحد، هذا ما يدعو الى تغييب العقل.

العاطفة التي تغيب العقل عدم وجودها أفضل.

نعم الحب شيء كبير ليس عليك اختصاره بشخص واحد.

اقتربت منه الفتاة التي تعمل في المقهى، وقفت قليلا خلفه وشاهدت ما يكتب، ثم اقتربت من الطاولة ووضعت فنجان القهوة وكأس الماء امامه.

_هل ترغب بشيء آخر؟

_لا شكرا لك.

مشت مبتعدة بضع خطوات، ثم عادت ووقفت بقربه.

_هل لي أن أسألك سؤال؟

أغلق رامي شاشة الحاسب، ونظر اليها.

_ بالتأكيد تفضلي أنا أسمع.

_ لقد رأيت بعض مما كتبته، ألا تعتقد أننا وسط كل هذه الوحشية نستحق الحب او اقله نحتاجه؟

قالتها متلعثمة، بلهجة تنم عن تعب كبير، وقد اختفت ابتسامتها.

_ بلى يا صديقتي نستحق، ولكن لا يجب ان تكون الحاجة هي ما يدفعنا للحب، تثقلنا هذه الظروف، ولكل منا أسبابه التي تجعله يرغب بأي لحظة فرح ممكنة، والرغبة في أن نتشارك هذا الألم مع آخر، لكننا متصدعون من الداخل، وهشين لأبعد الحدود، إذا ما أحببنا فقط لتجاوز ما نحن فيه، سنكتشف لاحقا ان الطرفين كانا يبحثان عن الحب، فقط لأجل تخفيف المعاناة، وأن دخولهم في هذه العلاقة لن تكون سوى معاناة أخرى أكبر وأعمق .....لو كنت أعلم أن ما كتبته أو ما أجبتك به سيخفي تلك الابتسامة لما فعلت، حافظي على ابتسامتك، ولا تسمحي لشيء أن يخفيها فنحن الذكور بارعون في تسبب الألم، صدقيني لا شيء يستحق.

اصطنعت الفتاة ابتسامة، حزينة كخيبة امل، ارادت أن تشكره، لكنها شعرت أن ما قاله يستحق الصفع لا الشكر.

وقفت جلنار أمام بائع الحلوى، وأخرجت مئتان ليرة من جيبها، وأعطتها للبائع،

نظرت عبر الزجاج الى الحلوى على الرفوف الصغيرة، كان لبعضها ألوان زاهية، اشارت بيدها اليها وقالت:

_أريد من هذه.

_ هذه ... ثمن القطعة الواحدة مئتان ليرة.

_ حسنا، أعطني واحدة.

اخرج البائع القطعة، ولفها بورقة وأعطاها لجلنار.

حملت جلنار الورد بيد، وأخذت قطعة الحلوى بيدها الثانية، ومشت في طريقها الى حديقة قريبة، تجمع فيها أناس قد نزحوا وهجروا من مناطقهم ولم يجدوا مأوى يؤويهم، فكانت الحديقة مأواهم.

قطعت الطريق، ولم تنتبه الى السيارة التي كادت أن تدهسها، ضغط السائق على الفرامل، وتوقفت السيارة ولامست بمقدمتها رجل جلنار لكن لم تصيبها بأذى.

نزل السائق وبدأ بالصراخ على جلنار، التي ركضت هاربة منه.

_ هؤلاء الناس يستمرون بالمضاجعة ويرمون أطفالهم في الشوارع، ماذا لو حدث لأحد منهم شيء؟ سوف يأتيك الاب ويظهر مدى الحب لطفله، وأن التعويض المادي الكبير هو السبيل الوحيد لكي يسقط حقه، اللعنة على أهلكم أنا لا أملك شيء!!

كل ذلك الكلام صرخ به سائق سيارة الأجرة، بينما جلنار تركض

مبتعدة، وكلمات السائق ترن في مسمعها.

ركب السائق سيارته ومشى بها مبتعدا، بينما وصلت جلنار الحديقة وقد أنهكها التعب، جلست على الأرض وفي رأسها يدور ما قاله السائق، بكت بحرقة بينها وبين نفسها، كان ذلك الصوت يمزقها من الداخل، البكاء الداخلي لعله أشد قسوة من أي شيء، هو يحطمها ويقطع كل يوم جزء من روحها ويلتهمه، لم يلحظ سكان الحديقة بجلنار سوى طفلة جلست تنظر الى الأرض، جميعهم الفها وألف وجودها وجلوسها وحيدة معظم الوقت.

اقترب منها طفل بعمر الثماني سنوات، يحمل بيده علبة يبيع فيه العلكة، كان أخيها مهند، كان يشبهها الى حد بعيد بثيابه الرثة أيضا،

سروال جينز بالي، وسترة رمادية تحول لونها للأسود، شعره الاشعث غير مسرح، وعينان صغيرتان وسط وجهه المستدير.

جلس مهند بجانب اخته جلنار، وتنهد قليلا ثم قال:

_منذ متى وأنت هنا؟

_لقد وصلت للتو، انظر ماذا احضرت لك؟

اعطته جلنار قطعة الحلوى، بعد ان اخرجتها من الورقة.

_ يبدو انها لذيذة، سوف أقسمها بيننا.

_ لا تفعل! لقد اشتريت لنفسي واحدة وأكلتها.

بدأ مهند يلتهم الحلوى وهو يقول:

_ انها لذيذة جدا! لا بد أن سعرها غالي، ولن نشتري الثياب في وقت

قاطعته جلنار قائلة:

_لقد اقترب موعد زيارتنا لأبي وأمي، وسوف نشتري الثياب قريبا، لا تخف ... هل اعجبتك؟

_ نعم انها لذيذة!

صمتت جلنار، بينما انتهى مهند من التهام قطعة الحلوى.

_ أنا ذاهب لبيع العلكة، انه يوم سيء لم ابيع بعد ربع ما لدي.

_حسنا سأراك في المساء، سأذهب وأبيع ما تبقى لدي من الورد.

ذهب مهند في اتجاه وذهبت جلنار في الاتجاه الاخر، كل سعى ينشد شيء، طفولة انتهت مبكرا، عليهم أن يتحملوا الان مسئوليات مضاعفة، لا وقت كثير يملكانه للتفكير فيما قد يفكر فيه الأطفال،

صفعات الحياة لم تعد تميز بين عجوز او طفل، على الجميع الان ان يأخذ همه وحزنه بعدل، المصاعب ذاتها والهموم ذاتها، من لا يعرف السباحة سيغرق، ومن يجيدها سينجو، لا مجال للتفكير بالقدر الان، او حتى رحمة السماء.

هذا ما دار في خلد جلنار، وكانت تخبر مهند كل ليلة عن ذات القصة، كانت ترويها كحكاية قبل النوم.

لقد استيقظت قبل سنوات رحمة السماء، وجدت نفسها مكبلة وزج بها في سجن بعيد لا تصله الشمس، ولا يصله الصوت، وكانت تحضر فقط في الصدف، وتختفي مرة أخرى عند الحاجة، كان الأولى بها ان تحضر ذلك اليوم، فقد كانت جلنار ومهند في أمس الحاجة اليها، لكن لا الصراخ ولا الشمس كانا قادرين على احضارها.

تحث ليلى خطاها الهادئة نحو المقهى.

كيف يمكن لأحد أن يجمع كل تلك التناقضات، وكل تلك المزاجية، على الرغم أن تلك الصفات غير محببة للأغلبية، الا أن ليلى كان كل ما فيها جميل، كانت اليقين وسط الاحتمالات الضعف والقوة الحزن والفرح الحب والكره الجرأة والتحفظ، نعم تحمل تناقضات غريبة وكثيرة، رغم ذلك كانت الأجمل.

كانت قصيرة القامة بملامح ناعمة تنم عن الطفولة، من يراها يعتقد انها لا تزال في السادسة عشرة من عمرها، عينان سوداوان واسعتان، وأنف صغير جميل ووجه مستدير، ببشرة بيضاء وشعر أسود طويل، ترتدي ملابس أنيقة.

عاشت مع أمها وأخ يصغرها بثلاث سنوات في شقة صغيرة بمدينة قريبة من دمشق، فعلت الحرب بمدينتها ما فعلته بكثير من المدن السورية، انها اليوم في دمشق تقدم على وظيفة بعد تخرجها منذ أربع سنوات، كانت الوظيفة ربما العاشرة أو أكثر تتقدم لها، وتعتقد جازمة أن النتيجة ستكون كسابقاتها، أسماء الموظفين المعينين موجودة

مسبقا، لكنها اليوم ارادت المجيء لهدف آخر لطالما حاولت التملص منه، وبنفس الوقت رغبت به كثيرا.

أوقفتها جلنار قبل وصولها المقهى وعرضت عليها أن تشتري وردة،

ابتسمت لها ليلى، نظرت الى الباقة ثم الى الوردة خلف اذنها.

_لم هذه خلف اذنك؟ الاجدر أن تضعيها مع الباقة كي لا تؤذيك أشواكها.

لمست ليلى الوردة خلف أذن جلنار، فما كان من الطفلة الا ان أبعدت

يد ليلى.

_انها هدية ... هل تشترين وردة؟

رغبت ليلى بشدة أن تأخذ وردة وتهديها لأحدهم، لكن كانت قبل ذلك تود الحصول على واحدة كهدية.

_ لا شكرا.

قالتها ليلى وأكملت طريقها نحو المقهى، أخرجت هاتفها المحمول واتصلت.

_أين أنت؟ .... نعم أنا أمام المقهى .... حسنا.

انهت الاتصال ودخلت للمقهى، مشت للداخل وصعدت الدرج باتجاه الأعلى، وصلت الى طاولة رامي، كان لا يزال يكتب على الحاسب.

_يا ألهي، انت لا تمل الكتابة!

رن صوتها في اذن رامي، فوقف ونظر اليها.

_ أخيرا، ها نحن نلتقي!

تصافحا مبتسمين وأشار لها رامي أن تجلس، وأغلق حاسبه ووضعه جانبا.

كانت الفتاة التي تعمل في المقهى تجلس على كرسي قريب خلف طاولة رامي، وقفت واقتربت منهما.

_لا تطلق التعليقات، أعرف أني أبدو أصغر مما أخبرتك.

_نعم بالفعل أنت أصغر!

وقفت الفتاة بينهما على طرف الطاولة.

_ ماذا ترغبين أن أجلب لك؟

_لا بأس بالقهوة، بلا سكر شكرا.

_اجعليهما اثنان

سجلت الفتاة الطلب وذهبت للأسفل.

نظر رامي الى ليلى مبتسما.

_ ما بك؟

_ انت أجمل مما كنت أعتقد.

_ أعلم ذلك... هل أعترف لك بشيء؟

_نعم أنا أسمعك.

_أردت أن أجلب لك وردة ولكن لا أعلم ما الذي منعني من ذلك.

قالتها ليلى بتردد وكان رامي جاهزا للمساعدة.

_ لعلك ظننت انها ستدل على شيء أخر لم تقصديه.

_نعم أعتقد ذلك ... أجمل ما فيك أنك أصبحت تعرف عني أكثر ما أعرفه عن نفسي.

لطالما كان رامي وليلى صديقان مقربان، تعارفا عن طريق أحد برامج الدردشة، وأستمر تواصلهما على الهاتف لفترة طويلة، وهذا لقاؤهما الأول، عرفا عن بعضهما الكثير، فقد كانا يتحدثان بالساعات مع بعضهما البعض، كانت طريقة مثلى لتبوح ليلى بكل ما يزعجها او مشاكلها لأحد لا يعرفها ولا تعرفه، وبنفس الوقت شخص واقعي لا يجامل أو يهون الأمر، فمنذ البداية كان تعارفهما في غرفة دردشة، طرح أحدهم موضوع وتناقش فيه الجميع، كانت أراء الجميع مثالية بلهجة معسولة، ورأي رامي كان الأكثر واقعية وقرب للمشكلة والاعتراف بها، أعجب ذلك ليلى فتحدثت معه عن مشكلة تخصها، وكان مرة أخرى شخص واقعي ويعرف عما يتحدث بعيدا عن مفردات التجميل والابتعاد عن الواقع.

منذ ذلك الوقت نشأت فيما بينهما علاقة صداقة قوية، كان كليهما يعرف عن الأخر الكثير، ولعل ذلك ما جعل من لقاءهما الأول باهتا وباردا، لكنه يحمل شوق

لم يعرف الطرفين كيفية التعبير عنه خوفا من الوقوع في التفسير الخاطئ، ولعل السبب الرئيسي أنهما اتفقا أن تبقى علاقتهما في حدود الصداقة منذ البداية.

_ الى متى أنت هنا؟

_ يومان على الأقل، فلم أستطع ان اتقدم الى مسابقة التوظيف اليوم، وغدا كما تعلم عطلة رسمية.

_واين ستنامين؟

_في بيت صديقتي، لقد أصرت أن أبقى عندها وأخبرت أمي بذلك ولم تمانع، على العكس لقد أطمئنت أكثر فهي تخاف من موضوع الفنادق، تروي لها صديقاتها قصص تخيفها كثيرا، خاصة أن أخي كما تعلم هو الان في فترة الامتحانات، ولا يستطيع ان يأتي معي،

انا اتحدث كثيرا لعلي متوترة .... أخبرني أنت ماذا تكتب الان وهل من جديد في موضوع المخرج ؟

_بالنسبة للمخرج كل شيء على حاله، والان أكتب من باب التسلية

واستثمار الوقت في شيء احبه.

اقتربت الفتاة ووضعت فنجاني القهوة وكأس الماء على الطاولة، وعادت وجلست في مكانها.

_عندي الكثير من الأسئلة، لا اعلم أن كنت ترغب في الاستماع؟

اخذت فنجانها وشربت منه.

_ما الجديد؟ لطالما كنت تطرحين أسئلة كثيرة، تفضلي ايتها الجميلة.

_هل تذكر لعبة بدون تعقيب؟

_نعم اذكرها، هل تريدين ان أسأل ام أجيب؟

_بالطبع أنت من سيجيب!

قالتها ليلى ضاحكة

_حسنا فلنبدأ بالحظ.

قالت ليلى ذلك ووضعت فنجان القهوة عند فمها.

أشعل رامي سيجارته.

_لعل الحظ من أكبر الأكاذيب المتفق عليها، شماعة يعلق عليها الفشل.

_القدر؟

_نتائج الخيارات، مجرد نتائج

_الكون؟

_الكون؟ الروح، هو ما نرى، وما قد نتخيل.

_اليقين؟

_لو وجد اليقين ما وجدت الحيرة، ولا الاختلاف ولا البحث ولا التطور لا الخوف ولا التردد.

صمت رامي قليلا وشرب من فنجانه ثم أردف:

_انه الرغبة بالعدم.

ابتسمت ليلى بعدم رضا:

_قانون هذه اللعبة لا يسمح بالتعقيب، لعل هذا ما يجعلك تقول ما تريد، ماذا عن الخذلان؟

_عدم المعرفة بالأخرين، والسبب دائما هو من يملك هذا الإحساس نفسه، بسبب توقع الأفضل.

_الكره؟

_ الكره كما الحب، ينم عن زيادة المعرفة، نحن لا نكن مشاعر إيجابية او سلبية تجاه أحد لا نعرفه.

_الصدق؟

_الصدق هو الشيء الطبيعي ليس شيء مميز، مجرد وصف للواقع كما هو بعيدا عن التزييف.

_والضياع؟

_الضياع هو الوقوف في الوسط!

_الضمير؟

_الله

_الاحترام؟

_السكوت عن الحق والسكوت على الباطل، هو ان تكون مقبول بغض النظر عما تفكر او تعتقد.

_الزواج؟

_الجنس بما يرضي المجتمع.

_المثالية او الكمال؟

_كذبة نحاول تصديقها لا نزال سطحيين جدا.

_النقاش؟

_قتال بشكل حضاري.

_لدي الكثير لأعقب به لكن قوانين اللعبة تقف في صالحك!

ضحكت ليلى محاولة استفزاز رامي، لكنه بقي هادئا باردا وأكمل مضغ سيجارته.

أحب رامي كثيرا محاولتها، ولكنها كانت كمن يقاتل نفسه، حتى أحست أنه كان يجبر نفسه على سماعها كنوع من اللباقة.

مشت جلنار باتجاه الحديقة، وكانت قد باعت ما لديها من ورود ولم تبقى سوى تلك التي خلف اذنها.

تركت احدى اشواكها أثر خلف اذنها، حملت الوردة ونظرت اليها وهي تمشي عبر الطريق، وقفت وأطالت النظر في الوردة التي نقصت بعض اوراقها، ولكنها كانت بنفس الزهاء الذي كانت بها صباحا، شيء ما شدها للنظر اليها بعمق، اعادت وضعها خلف اذنها الأخرى، واكملت طريقها وعيناها تلاحق اللافتات على واجهات المحال التجارية، تجذبها الألوان كما يجذب النور الفراشات، تلك الرغبة لفهم كل شيء بالتفصيل دائما تسبب الألم، إبقاء بعض الأشياء او جلها غامضة ومبهمة أفضل بكثير من فهمها.

بحثت في عيون المارة عن أي شيء، فلم تجد سوى الخوف، الكثير من الخوف دليل اخر على الفهم، وابتعاد نوع ما عن الروحانيات، اليوم فيها الكثير من الخوف من غدا، وغدا خوف أكثر من بعد غد، وهكذا دواليك، لا شيء مطمئن، تكاد تختفي الألوان جميعها من عيون الناس، وحل محلها لون الخوف.

_هل لهم الحق بذلك؟ من عساه ان يخاف طوعا او رغبة في ذلك الشعور؟ انه مقيت جدا!

بالنسبة لجلنار عاش الخوف مرة في عينيها لمدة وجيزة، لكنها رفضت اقامته واستطاعت التغلب عليه، ربما كان لدى الناس شيء ملموس مادي او معنوي يملكونه يجعل ذلك الخوف يسكنهم، اما أذا ما فقدت كل شيء فما حاجتك للخوف؟ انت لا تملك شيء لتخسره.

دبت في جسدها قشعريرة جعلتها تحث خطاها بسرعة الى الحديقة، وقفت على زاوية الطريق ونظرت الى الحديقة، وجدت اخيها جالس

هناك يفترش العشب ويراقب المارة كمن يحصيهم، هدأت ضربات قلبها، تنفست الصعداء واكملت طريقها بهدوء الى الحديقة.

وقف مهند عندما رآها واقترب منها عند سياج الحديقة.

_لقد بعت كل العلكة، وانت؟

قالها مهند واخذت جلنار بيده ومشيا الى المقعد.

_أنا أيضا بعت كل شيء، بقي القليل وسنزورهم.

وضعت جلنار يدها على شعر مهند.

_لقد بدأ الجو بالدفء، متى تنوي ان تستحم؟

_اعتقد غدا، إذا بقي الجو هكذا!

ابتسم مهند ثم أكمل بنبرة حزينة:

_لقد رأيت اليوم بعض الثياب لكن أسعارها باهظة، لا اعلم ان كنا سنستطيع أن نشتري شيئا؟

_لا تشغل بالك بالأسعار!

قالتها جلنار وكان كل ما يشغل بالها هو سعر الألبسة.

_الم اقل لك انني اعرف محل الأسعار لديه رخيصة ...تعال اجلس هل انت جائع؟

جلسا جلنار ومهند على مقعد خشبي في الحديقة بجانب رجل عجوز، ملامح وجهه تنم كلها عن التعب والتقدم في السن، وثيابه الرثة وحذائه الموحل يدل على انه من سكان الحديقة، انحنى ظهره وسطيا

عكازه ساعده على تخفيض انحناء ظهره نوعا ما، غارت عيناه في وجهه المليء بالتجاعيد، غطا انفه بعض من شفته العليا، كان يطيل النظر في ذلك السور، السور فقط لا أحد يجلس هناك!

_لا لست جائع

اتكأ مهند بظهره على المقعد وشبك يديه خلف رأسه، ووضعت جلنار رأسها بين يديها واتكأت بمرفقيها على ركبتيها،

اقترب شاب يرتدي زي عسكري يحمل الهاتف، ووقف قبالة الرجل العجوز وقال:

_يا عم هل أنت أبو محمود؟

رفع العجوز رأسه ببطء وقال بلسان ثقيل:

_نعم يا بني.

_انا رفيق محمود في الثكنة، لم تتم الموافقة على مأذونيته وأخبرني أن أقابلك لتتحدث معه من هاتفي.

ابتسم العجوز ابتسامة لا مبالاة بينما اتصل الشاب ووضع الهاتف على اذنه.

_شكرا لك يا بني هل محمود بخير؟

_نعم انه بخير، تفضل وتكلم معه.

اعطى الشاب الهاتف للعجوز وتركه وابتعد قليلا عنه.

_كيف هي احوالك يا بني؟ لقد اشتقت الى رؤيتك.

صمت العجوز قليلا وهز رأسه قائلا:

_انا بخير نعم بخير، لقد كان علي أن اغادر اليوم الى القرية ولكني كنت بانتظارك لأراك، لقد مر وقت طويل وأردت أن أحمل خبرا سارا لأمك، وصورة تجمعني بك لتطمئن عليك.

نظرت جلنار الى العجوز الذي نزلت من عينيه دمعة لكنها لم تؤثر على صوته المتعب، بقي صوته كما هو رغم ان وجهه حمل حزن كبيرا.

_لا يا بني ما الذي يبقيني هنا؟ انا هنا منذ شهرين افترش الأرض، غادرني برد الشتاء حتى انه ملني، سأعود الى القرية ليس لدي الكثير من الوقت لأخافه، على الأقل استطعت سماع صوتك قبل أن أموت.

وقف العجوز ومشى وأكمل حديثه:

_أمك تهديك السلام وتسألك أن تداري نفسك، كانت تود المجيء لكن بعد ان بترت ساقها لم تعد تستطيع النهوض وأوصتني أن التقط صورة لكلينا .... أختك سمر تزوجت والان شهيرة خطبت واخوك احمد سافر منذ عامين الى المانيا لكن لم

يصلنا منه خبر منذ ذلك الحين .... نعم سآخذ منه الصورة وانت عليك أن تنتبه لنفسك

سأسلم عليها واقبلها أيضا ... برعاية الله يا بني مع السلامة.

اخفض العجوز يده وفيها الهاتف ومشي عائدا الى الشاب بخطوات بطيئة، ومشي اليه الشاب اخذ الهاتف منه وابتسم له وقال:

_انت تخاف العودة الى زوجتك وليس لديك الدليل على أنك التقيت

به اليس هذا صحيحا؟

_أخشى انها لن تصدق انه بخير!

_حسنا لا تخف، تعال معي انا لدي طريقة تريح قلبها.

ابتسم العجوز ووضع يده على كتف الشاب وهز رأسه، اخذ الشاب بيد الرجل العجوز ومشيا خارجين من الحديقة.

هل فهمت جلنار أجوبة جديدة؟

هل الأجوبة التي سمعتها مفيدة بشيء؟

لا لقد تركت لديها أسئلة كثيرة

يا لقسوة هذا الابن، كيف ترك ابيه كل هذا الوقت ولم يأت لرؤيته؟

كان ينام في الحديقة مفترشا عشبها ملتحفا الصدقة!

كل ذلك من أجل ماذا؟

تمدد مهند على المقعد ووضع رأسه على رجل جلنار

_أرغب بالنوم قليلا.

_نم يا حبيبي.

بدأت جلنار تحرك اصابعها على شعر مهند وتنظر في وجهه، ثم رفعت رأسها ونظرت الى السماء وفي عقلها تدور ألف قصة وألف سؤال، ابتسمت ساخرة مطولا وهي تنظر للسماء.

على باب المقهى، خرج رامي يحمل حقيبة حاسبه المحمول ومعه ليلى، مشيا على الرصيف

_أجمل ما في دمشق هي ان الشوارع نظيفة.

_ليست نظيفة بالقدر الذي ترينه!

توقفت جلنار على الرصيف ونظرت الى رامي الذي استمر بالمشي.

_وهل أنا أقول ان هذا اللون أزرق مثلا وأنت تصحح لي كأني أعاني عمى الألوان؟ أم أنك لا تستطيع الا ان تعارض كل شيء أقوله؟ توقف وأجبني!

وقف رامي ونظر اليها، كان الطريق قد خفت منه زحمة الناس، ولكن لا تزال السيارات كما عهدت شوارع دمشق.

_ما كل هذا الرفض أخبرني؟ هل يؤذي كبريائك ان كنت على حق مرة على الأقل؟!

_لماذا كل هذه الحدة؟ اهدأي! كل ما أردت أن أقوله ان كل شيء نسبي.

أقترب منها رامي وأخذ بيدها ووقفا قبالة محل لبيع الألبسة، وأشار لها بيده الى البائع الذي كان يتحدث مع زبونة.

_على سبيل المثال انظري الى ابتسامة ذلك البائع هي نسبية.

وضعت الزبونة قطعت الثياب على الطاولة وخرجت، فتغيرت ملامح وجه البائع الى الغضب، اخذ قطعة الثياب وبدأ يتمتم.

_أين اختفت الابتسامة ها؟

_حسنا هلا تتوقف عن كل هذه السوداوية، على الأقل لقليل من الوقت لا ارغب بالشجار!

_ليست سوداوية ....

قالها رامي واراد ان يكمل فقاطعته ليلى:

_يا رب السماء!!

نظرت اليه بحدة، لم تملك الكلمات المناسبة، كانت ترغب ان تقول له تبا لنرجسيتك، ولكنها لم تجد مرادفات وقعها أخف.

أحس رامي بها وبكل ما ارادت ان تقوله، فقد فضحتها عيناها، ابتسم لها قائلا:

_حسنا انا اسف، الا ترغبين بزيارة المدينة القديمة؟

_هل هي قديمة بشكل نسبي أيضا؟

قالتها ليلى وتعتريها ثورة غضب في داخلها، لكنها اعطتها طابع المزح بابتسامة لطيفة.

_لا ليست نسبية تعالي معي.

اخذ رامي بيدها ومشيا، سحبت ليلى يدها ومشت بجانبه

_لا أحب ان يمسك أحد بيدي وانا امشي، لست طفلة هل هذا واضح؟ ام علي ان اشرح أكثر كي لا نقع بمعضلة النسبية؟

_انت أجمل وانت غاضبة!

لم تعرف ليلى بماذا تجيب، لطالما كانت هكذا لا تعلم ماذا ترد عندما

يخبرها أحد انها جميلة، او يطري على جمالها.

_هل المدينة القديمة بعيدة من هنا؟

_لا ليست بعيدة سنمشي قرابة العشر دقائق.

_اتعرف ماذا؟

_لا ماذا؟

_دمشق تليق بالعشاق فقط، والعشق لا يليق الا بها، لطالما حلمت ان انتقل للعيش هنا رغم ان لي تجربة معها لم تكن ودية، كانت أيام نزوحنا، استضافتنا عائلة خالتي لمدة ثلاثة أشهر، كانت تجربة صعبة وكل ذلك الحنين لمدينتك، لم أحب دمشق كما أحبها اليوم، وكثيرا ما يخطر لي أنها جميلة هكذا للزائرين وليست لمن يسكنها.

_لست أدري ما أقول!

_لا تقل شيئا دعني أكمل ...

امسكت ليلى بيد رامي واكملت بهدوء:

_بقدر ما اشعر بالرغبة في السكن هنا بقدر ما أخاف أن تبرد مشاعري تجاهها إذا ما اقتربت منها، كثيرا أخاف ان تختفي تلك الهالة او لا اعلم، لعلنا إذا ما حلمنا بشيء سنفقد لذته عندما يتحقق.

صمتت ليلى واكملت السير مع رامي، وصلا الجامع الاموي وفي طرف الساحة بالقرب من جدار الجامع، كان بائع الكستناء يقف على عربته ورائحة الكستناء المشوية تعبق في المكان، لم يجرب كليهما يوما طعمها، واعترتهما الرغبة هما الاثنين في تذوقها، لعل أكثر ما كان يجذب في تلك العربة هي رائحة لم يستطيع الاثنان تفسيرها

رائحة كانت بأنوف الجميع رائحة الكستناء المشوية، اما ما عبق في انفيهما كانت رائحة الحب، وذلك ما جعل الاثنان في حيرة من هذه الرائحة، ليست جديدة ولكنها لم يشماها من قبل.

مشي الاثنان الى الحب، كانت العربة باللون الأحمر الفاقع تزينها أوراق النباتات الخضراء وبعض أضواء الزينة، في جانب كانت عرانيس الذرة وعلى الجانب الاخر والاكبر كانت الكستناء المشوية توزعت على العربة كنجوم في ليلة اختفى فيها القمر.

البائع دائم الابتسامة، رجل في الأربعين من عمره، لم يخطر لرامي او ليلى ان تلك الابتسامة كانت نسبية، كانت دائمة وواضحة لم يكن فيها أدنى زيف.

مهما كان أحدهم على عجلة من امره كان يتمهل بشكل تلقائي عند المرور بالقرب من العربة، هل جميعهم يدركون انه الحب، ام انها شهية، لا اعلم لكن كان لها جاذبية غريبة لم يستطع أحد ان يفسرها.

ملء البائع لهما كيسا ورقيا من الكستناء، وأعطى كل واحد منهما عرنوس ذرة، أعطاه رامي المال مبتسما ومشيا يلتهمان عرانيس الذرة كسباق ليصلا الى ما ينتظرانه هما الاثنان.

كان منظرهما جنونيا وهما يخطوان خطواتهما الى المدينة القديمة، وكأن لهما شيء هناك ينتظرهما.

فرغا من اكل الذرة، وامسك رامي بالكستناء بيده اليسرى، ووضعها بينه وبين ليلى وهما يمشيان.

_هذه المنطقة اسمها باب توما مررت بها مرة واحدة من قبل.

تأبطت ليلى ذراعه ومشيا على مهل، كان مشيهما ابطئ من الانتظار

في محل للتصوير، وقف العجوز ومعه صديق ابنه، اطال المصور النظر في هاتف الشاب ثم قال:

_نعم أستطيع ذلك، لكنها ستأخذ بعض الوقت، وستكلف خمسة الاف ليرة هل هذا يناسبكم.

نظر العجوز الى رفيق أبنه ثم توجه الى المصور:

_لا بأس انه مناسب.

_تعال إذا يا عم لكي التقط لك صورة، وبعد ذلك سأقوم بدمجها.

دخل المصور الى مكان التصوير، وتبعه العجوز متثاقلا.

_أنت أيضا أيها الشاب تعال.

نادى المصور من الداخل على الشاب، فدخل ورائهم أيضا وترك هاتفه على الطاولة، كانت صورة تجمع الشاب برفيقه يرتديان فيها الزي العسكري.

وقف العجوز ووقف بجانبه رفيق ابنه، وجههما المصور ليضعا يديهما على كتفي بعض.

اخذا الوضعية التي طلبها، نظر المصور في الكاميرا:

_يا عم، لما كل هذا العبوس؟ أبتسم فهذا ليس وجه رجل بجانب ابنه، عليك ان تكون مقنعا، اهم ما في الصور هي الفرح.

ابتسم العجوز قليلا، دار شيء في عقله فابتسم أكثر ثم ضحك.

_اجل هذا ما نريد.

التقط المصور لهما الصورة ثم مشي الى مكتبه، لحق به الشاب يساعد العجوز.

جلس المصور خلف الحاسب وبدأ بالعمل على الصور، وجلس العجوز والشاب على كرسيين بجانب بعضهما.

أخذ العجوز كأس الماء بيديه المرتعشتين وشرب منه ثم اعاده.

_ما الذي اضحكك في الداخل؟

قالها الشاب ممازحا.

صمت العجوز قليلا ثم قال:

_لقد تخيلت زوجتي، ماذا كانت ستفعل او تقول إذا ما علمت بما فعلته وأنني خدعتها!؟

ضحك الشاب ثم قهقه العجوز ساخرا:

_لقد أصبح الغش سهلا.

ضحك الشاب مرة أخرى وفعل العجوز مثله، نظر المصور اليهما يضحكان حاول أن يمنع نفسه من الضحك، لكن كانت قد انتقلت عدوة الضحك اليه.

ضحك الجميع مطولا كثملين، حتى ان العجوز امسك بخصره متألما وهو يضحك، لعله لم يكن هنالك شيء مضحك او طريف، لكنهم كانوا بحاجة له، لا أقول ان الجميع كانوا يمثلون، على العكس، كان ضحكا حقيقيا لكن ليس له مبرر، كان

لكل منهم ما يشغله ويفكر فيه طويلا، نعم كل منا لديه هموم تزيد من ضغوط الحياة اليومية، وتجدنا عند أدنى فرصة اما ان ننفجر بالضحك او البكاء، على الرغم من الشح في الفرص، لعل هذا ما يدفعنا الى المبالغة بالحزن، او المبالغة بالفرح.

شاهدت مرة فيديو على موقع للتواصل، كان أستاذ يلقي محاضرة لمجموعة من الطلبة.

بدأ محاضرته بحمل كأس الماء، وسأل الطلاب:

_ كم تعتقدون وزن هذا الكأس؟

ترك للجميع فرصة الإجابة ثم قال:

"ان وزن هذا الكأس ثابت حين نحمله، لكن كلما اطلنا في حمله كلما أحسسنا بزيادة وزنه على اليد التي تحمله ... كذلك الامر بالنسبة الى ما يشغل بالنا من هموم ومشاكل، كلما اطلنا التفكير فيها، كلما زاد ضغطها علينا، فلا تفكروا مطولا بالمشاكل التي تعترضكم، كي لا تجدوا انها سرقت منكم أوقات جميلة بعد فوات الأوان"

انتهت نوبة الضحك، وعاد المصور الى عمله على الحاسوب، فيما شرد العجوز بالصور الملصقة على الجدار.

رن هاتف الشاب بجانبه، وقف الشاب وخرج من المحل، مشى بضع خطوات وتوقف وأجاب على هاتفه:

_مرحبا.

ارتسمت على وجهه ابتسامة.

_نعم انا بخير ولكن سأتأخر بعض الوقت، أنا في بيت صديقي الان سأسافر مساء اليوم اليكم .... لا تشغلوا بالكم بالتفكير .... حسنا سلمي على ابي، الى اللقاء.

عاد الى المحل ويبدو ان المصور فرغ من عمله وأعطى الصورة للرجل العجوز الذي نظر اليها مطولا.

_نعم انها حقيقية شكرا لك.

اخرج محفظته وأعطى المال للمصور ثم مشى مع رفيق ابنه الى الخارج، مشيا سويا على الرصيف وقد اقتربت الشمس من المغيب، بعض الغيوم في السماء، لا أحد يعلم بما تبشر انها غيوم ربيعية مليئة بالوعود.

_حسنا يا عم، هل تريد ان اوصلك الى مكان ما؟

_لا يا بني شكرا لك، سأذهب الى الباصات التي تقصد حلب.

اخرج العجوز المال من محفظته وترك فيها القليل وأردف:

_هذا المال اعطه لأبني لعله يحتاجه، لقد انتظرته شهرين ولم يأتي، خشيت أن أهدر المال على غرفة الفندق، لذلك قررت النوم في الحديقة.

اخذ الشاب منه المال وهز رأسه قائلا:

_حسنا!

_حفظك الله يا بني الى اللقاء.

مشي كل منهما في اتجاه، وكل يشغل عقله ما يشغله.

دار في رأس الرجل العجوز مشهد لقاءه بزوجته، وأخبارها أن ابنهما في خير ولا ينقصه شيء.

لقد انقطعت الاتصالات في الريف الحلبي منذ خمس سنوات،

لكم كان من السهل لو كانت لا تزال تعمل، لما اضطر الى كل هذه الرحلة.

الامنيات تعفر رأسه ولكن لا سبيل اليها، بقيت لديه امنية وحيدة هي وصوله الى منزله، سيعدو له في البيت خبز التنور، وقد يذبحون احدى الدجاجات التي اوصاهم قبل سفره ان يهتموا بهن،

ترى كيف أصبح حال زوجته؟ وبماذا فسرت تأخره في العودة؟ هل داعبت مخيلتها أفكار الصبية؟ وأنه قد تزوج عليها؟

ضحك لمجرد الفكرة، لمس جيبه وتأكد أن الصورة في مكانها، امسك بثوبه ورفعه قليلا ليساعده على المشي أسرع.

في الجانب الاخر مشي رفيق ابنه، لم يطيق الانتظار فأوقف سيارة أجرة، تكلم السائق كثيرا عن الحرب والازمة وكل شيء، لكن كلماته لم تكن تلقى الصدى الذي كان يأمله، فقد كان يدور في عقل الشاب سهرته الأولى منذ ثلاثة أشهر، مع من ستكون؟ وكيف أصبحت حبيبته؟ هل هي كعادتها مشتاقة له؟ ام انها خطبت لأبن خالتها الذي هاجر الى المانيا؟ هل لا يزال والده يلبس فزاعاته في الحقل من ثيابه القديمة؟ وهل قامت امه بصنع مربى القرع؟ فهذا وقته.

لاحظ السائق عدم اهتمام الشاب لحديثه، فأخرج علبة دخانه من جيبه وأشعل سيجارة لنفسه وأعطى الشاب سيجارة أخرى اشعلها الشاب،

نفث السائق دخانه ونظر اليه بطرف عينه:

_ما الذي يشغل تفكيرك؟

_اه .... لا شيء! أريد فقط أن أصل الى كراجات اللاذقية بسرعة.

_انت من اللاذقية إذا؟ ... من اين بالتحديد؟

لم يكن سؤال السائق عن فراغ، ولم يكن جديدا، لقد اعتاد الكثير هذا النوع من الأسئلة ليس رغبة بالتقرب، انما رغبة بمعرفة طائفة الاخر، في السابق كان الناس يسألونك من أين فقط، فتجيب اسم المحافظة وينتهي الأمر، لكن الان وكما قلنا سابقا تعددت النتائج والسبب واحد.

_اللعنة على هذه الحرب! اسمع يا صديقي رأسي يؤلمني ولا أرغب بالحديث ابدا، فهلا تكرمت عليا بالصمت وأسرعت قليلا؟

هز السائق رأسه.

_لا عليك كنت فقط اسأل لان لي صديق من اللاذقية، اردت ان أسألك عنه.

اللعنة على هذا السائق، ليس هذا فقط، بل الكثير من سائقي سيارات الأجرة، انهم يطرحون الكثير من الأسئلة، ويثرثرون كثيرا، أضف أليهم من يمتهنون الحلاقة.

صمت الشاب لعدم رغبته بسماع المزيد، وفهم السائق الرسالة فزاد من سرعة السيارة.

رامي وليلى يخطوان في دمشق القديمة، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

رن هاتف ليلى توقفت وأجابت:

_اهلا سمر ...هل تمزحين!؟ ..... حسنا انا قادمة الى اللقاء.

أغلقت ليلى هاتفها ونظرت الى رامي.

هز رامي رأسه مستفسرا!

_لقد اتصلت امي بمنزل صديقتي لتطمأن أن كنت قد وصلت إليهم، عليا الذهاب.

_لكننا لم نتحدث عن شيء بعد!

نعم كانت فترة قصيرة ليستطيع أحدهم اخبار الاخر بشيء يتعلق بمشاعره.

_هل تعتقد أنني سعيدة بالذهاب؟

احست ليلى انها قالت شيء لم يجدر بها قوله فاستدركت موضحتا:

_لطالما رأيت هذه الحارات في المسلسلات الشامية، وأردت أن أزورها لكن عليا الذهاب الان قبل أن أخضع لجلسة تحقيق طويلة مع أمي.

مشيت باتجاه العودة ووقف رامي في مكانه.

نادى عليها وهي تبتعد:

_هل سأراك؟

التفتت اليه وهي تمشي الى الخلف.

_سنرى، لا اريد أن أفوت زيارة هذه المنطقة.

_هل أوصلك على الأقل؟

أحبت ليلى الفكرة، ولكن ما عساها تجيب إذا شاهده والد سمر او والدتها؟

_لا .... أنا أعرف الطريق.

كانت تمشي للخلف وتنظر الى رامي، وكان رامي يمشي اليها لقد باحت عيناه بسره:

_عديني بأنني سأراك!

هزت ليلى رأسها بالموافقة وابتسمت، ثم ادارت ظهرها وأكملت طريقها.

وقف رامي لا يعرف ماذا يفعل او ماذا يقول، وغابت ليلى في زحمة العشاق، لو كانت أطول قليلا لتمكن من رؤيتها لفترة أطول.

هل كان عليه أن يخبرها بما شعر تجاهها؟ ام أن ترك كل شيء للاحتمالات كان أفضل له؟ هل تفكر به كما يفكر بها؟

_حسنا سأراها مرة أخرى، لم كل هذا الوجوم؟ ولم كل هذه الحيرة والفراغ في رأسي؟

قال لنفسه وهو يحاول أن يطرد ليلى من مخيلته، الأولى به أن يشغل عقله بشيء آخر، نعم هو لطالما أحبها حتى قبل أن يلتقيا لكنه خشي من خسارتها إذا ما صارحها بحبه.

في الصداقة، تستطيع أن تبوح بكل ما في سريرتك دون التزامات او وعود، وفي ذلك أنانية كبيرة لمن يفكر في الأمر، فأنت تقف في الوسط ومن أراد أن يقترب ليقترب، أنت لست ملزم بشيء تجاهه، والوسط بحد ذاته هو ضياع، تجعل الجميع متردد في أن يخبرك بما يكنه لك من مشاعر، فهذا رامي وهذه ليلى، لقد حملا نفس الفكرة ويبقيان في صراع دائم بين العقل والقلب، وهذا أمر متعب آخر، يحب الأنسان امتلاك كل شيء بما فيهم امتلاكه لنفسه.

جلست ليلى في سيارة الأجرة ولهفتها للقاء رامي في الغد مثل لهفته، داعبت مخيلتها الأفكار وهي تعرف في قرارة نفسها أنها تحبه أيضا، لكن عهدهم الأول يطرد من رأسها فكرة أن تعترف بحبها،

ماذا لو صدها؟ بالتأكيد بعدها لن تبقى علاقتهما كسابق عهدها،

هل ستخسره؟ ماذا عساه أن يفكر الأن؟ هل يفكر فيها أيضا؟

اعتقد الاثنان أنهما وقعا في الحب من طرف واحد، والاثنان خائفان من ردة فعل الاخر.

_لا يهم، سأراه غدا، وكعادتنا إذا ما قلنا لبعضنا أحبك سنضحك نحن الاثنان ونسخف الأمر.

قالتها في نفسها بينما وصلت رسالة نصية الى هاتفها قطعت عليها شرودها.

فتحت هاتفها وكان المرسل رامي:

<ايتها المجنونة، انتبهي الى نفسك، حدثيني عندما تصلين>

كعادة رسائله تجعل من ليلى في عالم اخر حتى لو كانت بلا معنى.

جلس أبو محمود في مقعده في الباص، وجلس بجانبه شاب في مقتبل العمر، يبدو أن بشرته كانت حنطية لكن ساعات العمل الطويلة تحت الشمس اعطته لونا اسمر لوجهه ويديه حد الرسغ، كان عريض المنكبين، وجسم يبدو عليه القوة، على وجهه التعب لكن ملامح الفرح غطت على ذلك، كان يرتدي كنزة كمها حد المرفقين وسروال جينز، وضع في اذنيه سماعات هاتفه المحمول، خلعهما حال ما جلس ووضعهما في حقيبة جلدية صغيرة يحملها.

القى التحية على أبو محمود بابتسامة عريضة ومحببة، مشي الباص على مهل حتى خرج من زحام دمشق بعدها زاد من سرعته.

_اسمع يا عم انا أثرثر كثيرا، ان كنت ممن يزعجهم هذا الامر سأغير مقعدي وأجلب بدلا عني شخصا هادئا.

قالها الشاب ممازحا.

_لا بأس يا بني، على أحدنا أن يحمل الاخر...هل أنت من حلب؟

قالها أبو محمود مجاريا فهو يعلم أنه لن يستطيع أن ينام رغم طول الرحلة.

_أجل من حلب، هذه زيارتي الأولى منذ ثلاث سنوات.

_تعمل في الخليج إذا؟ أو أنك عسكري في الجيش؟

_لا أنا وحيد، ولكن نعم أعمل في الخليج، متطلبات المعيشة كانت أسهل سابقا، علينا الان ان نعمل بكد لنؤمن ما نحتاج أنت تعرف، أصبحت في الثلاثين ولم أتزوج بعد، متى أصبح أحدنا في هذا العمر ولم يتزوج تبدأ الناس بالتحدث ولو عن طريق الدعابة.

_أنا تزوجت في السادسة عشر من عمري، عندها قلت لأبي أنني لا أريد أن أتزوج ولكنه شتمني وقال هل أنت خصي حتى لا تتزوج؟ كان رجلا عصبيا، لم يكن الأمر دعابة كما تعتقد، كانوا يقولونها بشكل جدي، ولكن أيامنا لا تشبه أيامكم كان كل شيء بسيط وسهل

_لا اعرف، ولكن كل عام جديد يكون أصعب من سابقه، كل الأوقات أجمل وأفضل من هذه الحرب التي لا تنتهي، لا أعلم لم كل هذا الجنون؟ ليت الأمر كان سهلا!

_جميعنا ننتظر فرج الله علينا ونأمل خيرا فمن يدري ما قد يحدث غدا؟ .... ها أخبرني هل خطبت وهل هي جميلة؟

استدرك أبو محمود وأراد أن يغير الموضوع.

_اما عن الخطبة فنعم، وعن جمالها لم أرها بعد ولكن أخبرتني أمي أنها جميلة، سأتزوج في هذا الأسبوع أن شاء الله، كل شيء يجب أن يكون سريعا فلا أملك الا شهرا واحدا، بعدها عليا أن أعود للعمل.

تكلم الشاب بنبرة فيها شيء من الحسرة، ولكنه كان صاحب ابتسامة دائمة.

هؤلاء الناس دائمي الابتسامة يحملون من الألم ما يفوق قدرتهم، لذلك قرروا أن يبتسموا ويضحكوا على كل شيء، نوع من الاكتئاب، لا الفرح قادر على أن يفرحهم ولا الحزن قادر على التأثير فيهم، نوع من فقدان الوعي العاطفي.

أسدل الليل ستاره وكان حديثهما طويلا لا يبدو أنه سينتهي عما قريب.

جميعنا نحب الثرثرة ما دامت ستهون علينا من الانتظار.

في الطريق الى اللاذقية جلس علي صديق محمود في المقعد، لقد تأخرت الرحلة وها هو الباص أخيرا يأخذ طريق اللاذقية ويزيد من سرعته،

تجلس بجانبه امرأة في الخمسين من عمرها، تمسك بحقيبة في يدها كانت تحتضنها كمن يحتضن طفله.

كانت حنطية البشرة بشعر بدأ الشيب يغزوه مؤخرا، بعض التجاعيد على وجهها، وغطا نصف وجهها شال ابيض كما انه غطا نصف شعرها، كثير من الحزن حملته بملامحها، كانت كمن يشعر بالخوف او الوحدة.

رن هاتف في الحقيبة، أخذت بعض الوقت لتستطيع فتح سحاب الحقيبة،

في الحقيبة تناثرت بعض الصور لابنها بثياب الجيش، وهاتفه الذي يرن، ومصحف صغير ومسبحة مزينة بالفضة، في أسفل الحقيبة بعض القمصان مرتبة كأنها وضعت على مهل، ورقة من فئة خمسمائة ليرة وأخرى من فئة المئتين ليرة.

نظرت الى الهاتف مطولا وهو يرن في الحقيبة، على الشاشة اسم المتصل "الجنة"

حملت الهاتف وردت:

_أهلا.

كان صوت المتصل عاليا وتقطعه نوبات السعال.

_لا أنا ما زلت في الطريق.

كان صوتها هادئا ناعسا متعبا.

_نعم لقد جلبت ما وجدت من أغراضه وهاتفه من بينهن...اسمع أنت تصرخ كثيرا، ارجوك ليس لدي القدرة للدخول في شجار معك، أنت تحب أن تصدق ذلك لأنك لا تستطيع البحث، أما أنا فلا.

قالت ذلك بشكل متوتر وقد رفعت صوتها.

نادى عليها المتصل ولكنها قاطعته:

_اسمعني أنت، سأغلق الخط الأن وسنتحدث عندما أصل، هل هذا واضح؟ ..... الى اللقاء.

أغلقت الهاتف وتنهدت بحسرة، وأعادت الهاتف الى الحقيبة ببطء، ثم ألقت نظرة على محتويات الحقيبة، وكانت حريصة أن تمر يديها على كل شيء فيها كمن يرعى صغار قطة.

أغلقت سحاب الحقيبة واحتضنتها ودمعت عيناها بقطرتي حزن لم تشاء أن تذرفهما الان.

حاول علي الذي كان يرغب ان يبقى صامتا أن يهون عليها.

_لا عليك يا خالة لا شيء يستحق كل هذا...

قاطعته ونظرت اليه بحدة:

_لا شيء يستحق ها!؟ نعم لا شيء يستحق، فأنت لست أم، ولن تكون كذلك في يوم من الأيام!

كان ردها صاعقا بالنسبة لعلي، فلم يرغب أن يزيد من حنقها.

_اسمعي يا خالة، أنا أعتذر إن كان ما قلته قد أثار غضبك ولكني لم أقصد الإساءة والله يعلم ذلك.

هزت رأسها وتمتمت بكلام لم يفهمه علي.

تنفست الصعداء ثم قالت بلهجتها الهادئة الحزينة:

_فليقولوا ما يريدون هم احرار، وأبوه أيضا حر بما يظن ...قالوا إنه قتل وهنيئا لي بشهادته، تبا لهم، لا يعلمون ان علاء لم يمت، وأن خطيبته كل يوم تتصل وتسأل متى سيأتي.

اصفر وجه علي ولم يدري ما يقول، واكملت المرأة كلامها بحزن أكبر:

_والده أراد أن يصدق ذلك، انه عاجز منذ ثلاث سنوات بشلل نصفي، هو لا يستطيع أن يبحث عنه لذلك كان أهون الشرين أن يصدق.

لعل ما قالته فيه شيء من الحقيقة، فجميعنا إذا لم يكن لدينا القدرة على البحث في شيء نلجئ الى ان نصدق ما يقال لنا، نحن ميالون للكسل والبلادة بطبيعتنا، ولكن لا يعقل أن يصل بنا الأمر أن نختار موت أحد نحبه لأننا لا نستطيع أن نبحث عنه .... هل نفعل ذلك!؟

لا اعتقد ذلك!

_وظيفة لأخيه، وحفنة من المال، يريدون من أجل ذلك أن أصدق أنني لن أراه مجددا، تبا لهم ولمالهم...لا ... لن أصدقهم وسأبحث عنه حتى اخر يوم في عمري، وسيأتي يوما ما ويوقظني من نومي ويقول أنا عدت وقد اشتقت اليك، وليضعوا وظيفتهم ومالهم ..... حيث يريدون.

يشق الباص طريقه مرة صعودا وأخرى هبوطا، كل من في الباص يشغله ما يشغله، هذا يتحدث عبر أحد برامج الدردشة في هاتفه والأخر يتكلم عبر الهاتف، البعض يحدث نفسه والبعض الأخر يتمنى أن يجد من يسمعه.

لم يعرف علي ما يقول، هو لا يرغب بالكلام أصلا ويريد أن يشغل عقله بشيء آخر، أي شيء كان بعيدا عن الموت.

كل ذلك الحزن على وجه المرأة في جانب علي لا يستطيع أحد تحمله، كم كبير من التفكير المصحوب بالألم الذي لا تمله، ولعلها أيضا تحبه، أو تحب شيء فيه.

هل هو تجنب لألم أقسى كألم الاعتراف؟

لنتجاوز مشكلة ما علينا أولا أن نعترف بوجودها قبل أي شيء آخر، ومن ثم نبحث عن حلول لها.

كان الأسهل لزوجها أن يعترف بأنه خسر ولده، وكان الأسهل لها ان ترفض أن تعترف بذلك، ربما أننا جميعا نبحث عن الأشياء السهلة،

لكن أين اللذة في الحصول على شيء سهل، او ما هو متاح؟

كل منا له رؤيته الخاصة وقد يكون من النادر أن تجد وجهتا نظر متطابقتين بشكل حقيقي بعيدا عن ترهات المجاملة، أو عدم الخبرة وقلة الثقافة، وكما قلنا مسبقا ميالون نحن بطبيعتنا الى البلادة والكسل، تجنب كارثة ما، أمر يتفق عليه الكثيرون، لكن إذا ما بحثنا عن السبب، ستجد لكل شخص منهم سببا يختلف عن الاخر.

لكن ما قد يجمع عليه هو الأنا وحب الذات.

نتحول في كل يوم الى نسخ متعددة، نشبه أناس كثيرون، ونرتدي أقنعة كثيرة، قد نشبه حتى مخلوقات أخرى، الشيء الوحيد الذي لا نستطيع أن نظهر به أمام الناس، هو أنفسنا.

نحن نحتفظ بأنفسنا لأنفسنا، ونحب لأننا نحب أنفسنا، ونكره لأننا نحب أنفسنا، نفعل كل الأشياء التي نفعلها لأننا نحب أنفسنا، رغم ذلك لا نلبس وجوهنا الا بمفردنا، في أوقات متأخرة جدا من الليل قبل أن ننام، هذا الوقت بالتحديد الذي يبعث في داخلك كل تلك الأسئلة وكل ذلك التفكير، ذلك هو أنت الذي كنت تهرب منه طوال النهار.

نعم، نحب أنفسنا الى تلك الدرجة التي لا نرغب بأن يرانا غيرنا.

تجلس ليلى في غرفة صديقتها سمر ترتدي لباس النوم، فقد باح المساء بما في جعبته، لعله وقت النوم ولعله وقت لشيء آخر هو الجلوس مع نفسها قليلا.

دخلت السرير وجلست، بينما دخلت صديقتها سمر الغرفة تحمل القهوة وبعض الكعك.

_هل تمزحين؟ لن تنامي الان صحيح؟

قالت ذلك بينما كانت تتجه الى البلكونة.

كانت ترتدي ثياب المنزل، نثرت شعرها كيف ما اتفق وجمعته فوق رأسها بمشبك، سمراء البشرة بعينين واسعتين وأنف ملائم لوجهها المستدير، وفم صغير، أصغر مما يجب، كان في صوتها شيء يدفعك الى الضحك، صوت طفولي ورقيق أكثر مما يجب يذكرني بالأصوات التي أسمعها في الرسوم المتحركة.

_هيا تعالي نشرب القهوة، لن أتركك تنامي الأن سنسمع برنامج على الراديو، هيا كفاك كسل.

كانت سمر قد جلست على البلكونة، جلست على كرسي وامامها طاولة مستطيلة لتلائم جلوس عدة أشخاص في البلكونة الضيقة.

مشت ليلى اليها وجلست، وأخذت فنجانها وحملت قطعة من الكعك بيدها، قضمت منها وعيناها تلاحق كتل الظلام بسبب انطفاء الكهرباء في مناطق، وأضواء في مناطق أخرى.

بالتأكيد لن أخبركم وأشرح لكم عن التقنين، فجميعكم يعرف ذلك،

ومهما استفضت في الكلام عنه أنتم على دراية به.

وضعت سمر هاتفها المحمول على الطاولة، وشغلت على الإذاعة في نهاية موجز للأخبار وبدأ البرنامج.

_ما بك صامتة؟ هل أنت متعبة؟

تنهدت ليلى، وعرفت أن سمر بعد هذا السؤال ستسألها عن تأخرها والصديق الذي كانت معه، وحاولت مرارا أيجاد جواب منذ عودتها ولكنها لم تجد ما يقنع، وهي لا تحب أن تبرر.

_لا أبدا لست متعبة.

_ لم تخبريني لماذا تأخرت؟

ابتسمت ليلى بانتصار:

_لقد سرقني الوقت، كنت أرغب بزيارة المدينة القديمة لكن قبل أن يحدث ذلك أتصلتي وأخبرتني أن أمي اتصلت وعدت لحظتها.

في البرنامج على الإذاعة، طرح المذيع سؤالا، ما الشيء الذي قد يخافه الناس؟

_كيف وجدتي رامي؟

_رائع، لا أعلم ولكنه رائع، من يستطيع أن يحتملني كل هذا الوقت الا شخص رائع مثله؟

_يبدو أنك أعجبت به، اليس هذا صحيح؟

طوال اليوم كان يدور في رأس ليلى رامي فقط، وأسئلة سمر الان هو اخر ما كان ينقصها، كانت تحاول طرده من قلبها لتحافظ عليه، لم يعد بإمكانها تحمل المزيد من الوحدة أو الخذلان.

قضمت ليلى من قطعت الكعك، وحاولت مضغها على مهل، لعل شيء ما يسعفها على إجابة دبلوماسية لا تضعها في خانت طرح أسئلة أكثر.

_لطالما كان يعجبني انه صديق ممتاز ... هل تلمحين الى شيء؟ ان كان الأمر كذلك اطمئني، نحن اتفقنا على أن نبقى أصدقاء، هو يعجبه هذا، وأنا أيضا يعجبني ....

صمتت قليلا وأكملت بشيء من الحسرة:

_ قلبه مستهلك سابقا وقلبي كذلك.

ضحكت سمر بخبث.

_ما الذي يضحكك؟ هل ألقيت نكتة؟

_لا ابدا ولكنك قلتي شيئا أنت نفسك لم يعجبك ولم تصدقيه أيضا.

شربت سمر من فنجانها، كانت هادئة كثيرا، عكس ليلى التي كانت عيناها تبحثان وسط المجهول عن أي شيء، حملتا كل ذلك الخوف في داخلها، كل تلك العبثية، منذ البداية كان الجميع يخبرهما أنهما يحبان بعض الا هما، كانا يخبران الجميع ويخبران أنفسهم أنهم فقط أصدقاء.

اتصل كثر الى البرنامج، وكلن أدلى بدلوه وبما يخيفه، ماذا لو...

قبل أن تطرح على نفسها ذلك السؤال قطعت سمر عليها شرودها:

_الجميع لديه شيء يخافه، هل تعلمين مما أخاف؟

هزت ليلى برأسها مستفسرة.

_أنا أخاف من الوحدة كثيرا، كل يوم استيقظ وأفتح غرف المنزل

كلها لأتأكد أن الجميع هنا بقربي، أبي وأمي وأخوتي، أخاف من أن أخسر أي أحد منهم، غياب أحدهم كغيابهم جميعا، نعم الوحدة كالألم، كل شيء يبدأ بالتدريج.

صمتتا، كان هذا الشعور مخيف لكليهما، لم تشاء ليلى أن يطرح عليها هذا السؤال، فهي لا تعرف بما تجيب فأشياء كثيرة تخافها، بدئا بالحشرات وليس انتهاء بالأشباح، لعل في تلك اللحظة خافت كثيرا من أن تفقد أمها، قشعريرة انتابت جسدها فطردت الفكرة من رأسها بسرعة.

_وأنت، ما الذي قد يخيفك؟

أجابت مسرعة:

_لا شيء... نعم لا تستغربي!

كانت تتحدث وتجلب الكلمات التي تريد قولها دون ترتيب.

_عندما يؤمن الأنسان بوجود الله بجانبه ليس عليه أن يخشى أي شيء آخر، الله يحدد كل شيء، ولا شيء خارج مشيئته.

نسيت أن أخبركم عن سمر.

عندما انهت دراستها في الثانوية، أرادت الدخول الى الجامعة، الفرع الذي كان عليها أن تدرسه، كان موجود في المدينة التي تعيش فيها ليلى، سكنت سمر عند احدى صديقات ليلى، وتعرفتا على بعض، ونشأت بينهما علاقة صداقة قوية ولطالما كانتا تزوران بعضهما البعض.

تكلم أحد المستمعين الدائمين للبرنامج، كان أكثر من يتابع البرنامج

يعرفه منذ أن يقول أول كلمة.

شد هذا الصوت ليلى التي اقتربت من الهاتف لتسمعه جيدا، أنه صوت مألوف، صوت لطالما رغبت بأن تسمعه حتى وهي نائمة.

_اسمعي ماذا سيقول هذا المتصل، اسمه رامي، شخص واقعي لأبعد الحدود لطالما أجاب بشفافية عن كل ما يطرح.

وضعت ليلى يدها على فم سمر لتسمع ماذا يقول، انه بالفعل رامي وعليها أن تسمعه مهما كان حديثه مهما أو لا.

تبادلا التحية رامي والمذيع مع بعض الضحكات.

_إذا يا رامي هل تخاف شيء؟ أخبرنا رغم أنني أعرف أنه ليس موضوع تحبذه.

ضحك رامي ثم بدأ يتكلم:

_في الحقيقة أخشى أشياء كثيرة.....غدا على سبيل المثال، ولكن أريد أن أقول شيئا سواء كان مهم أولا، أكثر ما أخشاه هو أن أعترف بحبي لفتاة لطالما اتفقنا أننا سنبقى أصدقاء، هذا الأمر يتعبني جدا ويخيفني، كيف ستكون ردة فعلها؟ وماذا ستقول؟ أنا أحبها نعم وهذا ما كنت أحاول تجنبه طوال تلك الفترة، لقد كنت أخشى خسارة كياني كليا في شخص آخر غيري، وبعدها لا أستطيع أن أعرف نفسي، ولكن رغم كل ذلك التجنب لحبها رغبت كثيرا اليوم أن أخبرها بذلك، ولكن شيء ما منعني من ذلك.

انقطع اتصال رامي وارتسمت على شفاه ليلى ابتسامة عريضة، لعلها وجدت ضالتها، كثيرا ما كان يخبرها أن تستمع للبرنامج، ولكن بثه لم يكن يصل الى مدينتها، ما هذه المعجزة التي حدثت؟ الان لا شيء يستطيع أن يمنعها من أخباره ما تشعر به ولو كان تلميح بسيط منه.

وقفت وقبلت سمر كالمجنونة وصرخت أنها تحبها، ثم ذهبت الى الغرفة وسط ذهول سمر التي لم تعرف ماذا حصل لها.

_أنت مجنونة هل تعلمين ذلك!؟

_نعم أعلم، وهل هنالك شيء أجمل من الجنون؟

جلست ليلى في السرير وأفسحت المجال لمخيلتها قدر المستطاع، ارتسمت الابتسامة على وجهها وكم هائل من الفرح، امسكت هاتفها تقلب في رسائل رامي وتراجعهن جميعا.

هي بحاجة الى الفرح مثلنا جميعا، وفي أغلب الأحيان يكون الفرح على بعد خطوة واحدة ولكننا لا نملك الجرأة لكي نخطو، كالطفل في بداية المشي وكل ذلك الخوف عندما يتعلم المشي، لولا وجود من يشجعه على مقربة منه ويعده بالاحتضان ما أن يخطو خطوة أو اثنتين لما خطا يوما.

وجدت ليلى ما يشجعها لتخطو نحو الفرح بلا خوف، كل ما يفصلها الأن عن ذلك الفرح هو بضع ساعات، يجب أن تنام لكي يمضي الوقت بسرعة.

نعم الغد أجمل من كل ما مضى، لو لم يكن أجمل لما استطعنا النوم حتى نحلم به، وإن كان أسوأ فما يدرينا، سنحلم بغد اخر سيكون

أجمل، أحبت تلك الفكرة وحاولت النوم والحلم بغد، فمهما يكن نحن نستحقه، وان يكون ابيضا او اسودا، فنحن من سيلونه بالحب والفرح بقلوبنا.

في بيت ابن عمه، جلس رامي في الفسحة وحده، وضع حاسبه المحمول قبالته، لم يكن يريد أن يكتب شيئا ولكنه أراد فقط أن يفكر،

لقد أنهى اتصاله للتو، هل كان يجب أن يقول ما قاله؟ ما شأن الجميع أذا كان من يهمه الامر لم يسمعه ولم يجرؤ على اخباره بالأمر؟

ندم بعض الشيء على ما فعل، كان الأولى به أن يخبر ليلى نفسها بالأمر.

بينما كانت تزدحم الأفكار في رأسه، خرج ابن عمه سامر الى الفسحة، مشي نحوه وهو يتكلم:

_لماذا تجلس هنا؟ الجو بارد في الليل.

جلس بالقرب منه

_لا الجو جميل انه الربيع يا رجل!

_هل نشرب الشاي؟

_اشرب من يمنعك؟ أنا اريد أن أكتب قليلا.

نظر اليه سامر ضاحكا:

_اسمع، شيء ما لا يعجبني بك اليوم، ما القصة؟

_لا شيء...

قالها رامي ثم اغلق شاشة الحاسب وأكمل:

_ماذا عساي أن أقول؟ صدقني لا شيء! هو مجرد التفكير فقط، شعرت بالصداع وأردت أن أجلس وحدي.

_انت تفكر كثيرا، صدقني لا شيء يستحق لأننا مهما فكرنا لن يتغير شيء، الأفكار وحدها لا تغير شيئا، وأنت في حالتك لا تستطيع فعل شيء، لذلك لا ترهق عقلك وعشها كما هي، الم تسمع بحملة عيشها غير؟

ضحك سامر ورامي على ما قاله سامر.

_ادخل الالفية يا رجل وهون عليك!

_هل تدري؟ جملة لا شيء يستحق ونحن نستخدمها كمواساة ماهي الا مأساة في حد ذاتها؟

_أنت تتحدث بكلام كبير! هون علي الأمر وحدثني بما أستطيع أن أفهمه، يبدو أن الوحدة وهذه الفترة الطويلة في الجيش جعلت منك مجنونا وعلينا أن نعالجك!

_الشاي أم القهوة؟

قالها رامي محاولا الهروب من الموضوع، هو لم يرغب بالتحدث، وسامر كثير الثرثرة انه لا يملها.

_أنت الأن هكذا!

قالها سامر ورفع له إصبع الابهام وأردف قائلا:

_هيا قم معي نجلس في الداخل، سنشرب الشاي أو القهوة، أم أنك

أدمنت المتة كعادة العساكر؟

وقف سامر ومشي الى الداخل، ووقف رامي ووضع حاسبه في الحقيبة ومشي خلفه الى غرفة الجلوس.

لقد كان سامر يخدم في الجيش أيضا وله أخ اخر، وفي الفترة الأخيرة فقد أخاه ولم يسمعوا عنه أي خبر، تزوج سامر من فتاة أحبها وأحبته، كانا يعيشان حياة سعيدة.

بعد أن فقد أخاه جاءت أمه من شرق سوريا الى دمشق، وبدأت بأوراق تسريحه بما أنه أصبح وحيدا، وبالفعل تم ذلك وسرح من الجيش، ويعمل الأن لتأمين متطلبات حياته وحياة أسرته.

جلسا في غرفة الجلوس وأطلق الجميع النكات، وضحك الجميع.

سامر ورامي يشربان المتة، والفتيات الصغار يتابعن التلفاز، وأم سامر ما انفكت تتحدث عما كان يفعله التنظيم في دير الزور وحجم الجور والظلم الذي وقع على الأهالي منهم، فكل يوم هنالك قتيل بتهمة ما، لا يستطيع أحد معارضة قوانينهم لأنه سيقتل بتهمة الكفر.

يخاف الناس كثيرا على حياتهم لا يهم من يحكمهم، المهم أن يعيشوا حياتهم ويعملوا من أجل الغد، مهما كان ضبابيا.

_يقولون انهم مسلمون ولا يفرقون بين الشيشاني أو الأفغاني، على العكس، هؤلاء الأجانب سموهم المهاجرين الذين جاؤوا لنصرة دين الإسلام، ويفضلونهم على من انتسب للتنظيم من بعض أبناء المنطقة التي غسلت أدمغتهم،

ضحك رامي على ما قالته زوجة عمه.

_انت لا تصدق ها؟

_بلى أصدق، وأعرف كل ما يقومون به فالقنوات الإخبارية ليس لها عمل سوى الدعاية لهم، وما مر عليك ما هو الا غيض من فيض.

حاول سامر أن يجاري الموضوع:

_انهم يدعون الإسلام! هم لا يمثلون ديننا ولا بأي شكل من الأشكال.

ضحك رامي ساخرا:

_هل تدلني على من يمثل الإسلام؟

نظر الى سامر الذي تغيرت ملامحه، ثم نظر الى زوجة عمه التي كانت تنتظر أن يكمل حديثه، فهي تذكر آخر زيارة لرامي لهم في المنزل منذ سبع سنوات، وكانت بداية الحرب في سوريا، يومها أيضا فتح نفس الموضوع وكان رامي من المغضوب عليهم حتى من أقاربه، ولكن كانت زوجة عمه تحبه كثيرا كما كان يحبها ويراها في مقام والدته.

تذكر أيضا رامي ما حدث، كان يجلس في المضافة ومعه ثلاث او أربعة شباب في مقتبل العمر، من بينهم أخيه الذي يكبره بعام،

تحدث الجميع عن المستقبل وما أسموه بالحرية والازدهار ما أن يتنحى نظام الحكم في سوريا، تحدث رامي يومها بما أزعج الجميع ومن ضمنهم أخيه، وتحدث عن التجارب التي حدثت مسبقا في تونس ومصر وليبيا بأنها تجارب غير مشجعة، وأن نجحت ما أسموه بالثورة بتنحية نظام الحكم سيسرق الإسلاميون ثورتهم وسيعود بهم

الزمن الى عصر الجواري والسبايا وقطع اليد والرأس، وأشار رامي الى الشعارات التي كانت ترفع في بداية الحراك بأنها شعارات اقصائية وطائفية ولا تمت الى ازدهار بشيء، على العكس ستشجع على الطائفية وسندخل حرب عمر وعلي من جديد، ومن كان أحق بالخلافة ومن أحق بالجنة.

_نعم لن تجيب، لأن كل من درس شيئا عن الإسلام وكيفية انتشاره واحكامه، لأيقن أن هذه الفتاوى والاحكام لم تأتي من فراغ أو من خيال أحدهم.

قالها رامي محتدا وأشعل سيجارته:

_هل تخبرني ما حكم السارق في الإسلام؟ هل تخبرني حكم الزنا في الإسلام؟ هل تخبرني حكم الشذوذ الجنسي في الإسلام؟ هل هل هل هل؟ ..... أعطني حكما واحد لا يمت الى الإسلام بصلة!

حاول سامر الدفاع قائلا:

_لم هم لا يطبقون الشرع والاحكام؟ لو كانوا صادقين أو يعرفون الله

قالها سامر موجها حديثه الى أمه وقاطعه رامي:

_متى كان الأقوى يطبق القانون على نفسه، على الأقوى أن يضع قانون ليحكم القطيع، لكن هذا القانون لا يطبق عليه، أما أن تكون قويا وتضع القانون، وأما أن تكون من سائر القطيع وتلتزم به.

لف الصمت المكان، ولم يبقى في غرفة الجلوس غير سامر وأمه ورامي.

_لا تدع عاطفتك تجاه دينك أو قضيتك تغيب عقلك، ضع هذا العقل حكم في كل شيء، عندها فقط ستعرف أن الله هو العقل، لأنه هو فقط ما يميز بين الخير والشر، أن يقتلني عدوي مدافعا عن عقيدته وفكره هذا اسمه جريمة، أما قتلي له يعد جهادا، كفانا كالنعامة نضع رؤوسنا في الرمل كي لا نرى الحقيقة، نعم في ديننا الكثير من الأخطاء علينا أن نعترف بها، أما قولنا هذا لا يمثل الإسلام وهذا لا اعلم ماذا، هذا كله هروب من واقعنا وضحك على أنفسنا.

دخن رامي سيجارته.

هل ما قاله رامي صحيح؟ فيه شيء من الحقيقة ولكن كيف عسانا أن نرى ما تربينا عليه وما تعلمناه في المساجد أمرا خاطئ، لا، شيوخنا ليسوا على خطأ، وديننا هو الحق، والباقي كلهم مجرد كفار قردة، ومن يشتم ديننا بعيب فيه هو يشوهه وعلينا قتله.

ذلك يشبه من لديه طفل مسخ فيه كل العيوب، وثارت ثائرته عندما سأله أحدهم، هل طفلك أعور؟

_هذه الأفكار في رأسك خاطئة، ديننا دين الرحمة والعدل والتسامح.

_هل تستطيع أن تعطيني دليل؟

قالها رامي ساخرا.

_نعم، الكثير من الآيات تقول هذا.

قالها سامر واثقا.

_ ويقابل كل آية عشر آيات تنادي على القتل والسبي، زد على ذلك الاف الأحاديث التي كلما كشف منافاتهم للمنطق، ينادي أحد الشيوخ بأنه حديث ضعيف، وأنه يقع في الشبهة، أو أن الراوي كان يحلم مثلا.

لا أعلم لما كان علي أن أذكر ذلك، فهذا موضوع يثير في الكثيرين الرغبة في قتلي، على كل أذا لم يعجبك ما قلته ما عليك سوى أن تشق الصفحات الثلاثة السابقة، أو ضع الكتاب بالقرب من المدفأة وأستخدمه لإشعالها.

علينا الاعتراف بهذه الأخطاء التي أصبحت كارثية، أنا لا أبرئ أحدا ولا أهاجم دين أحد بقصد الإساءة، لكن علينا أن نكون واقعيين فقط.

وليس دين الإسلام وحده فيه أخطاء، فمن قرأ عن حروب الكنيسة وكم أزهقت فيها من الأرواح، لعرف أن الموضوع كارثي فعلا.

لا يمكن أن تكون هنالك رسالة من السماء تحمل كل هذا الدمار والتخريب.

_"الله محبة "

قالها رامي منهيا ذلك النقاش، والتفت للعمل على حاسبه.

تتوقف تلك الحروب عندما يعلم الجميع أن هذه ليست رغبة الله، بل هي رغبة البشر الذين يجدون في الموت والخراب قوة وسلطة، وأن استمرارها هو استمرار لنفوذهم وقوانينهم التي تمنحهم قدرة أكبر على السيطرة على القطيع، علينا دائما

أن نخبرهم أن لا يستخدموا الله فيما يناسبهم فقط، علينا أن نفعل شيء لله ليس بدافع الخوف، بل بدافع حبنا له، فالخوف والحب لا يجتمعان.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، تناثر ساكنوا الحديقة عشبها، واستلقوا في ركن منها، القوا بهموم كامل يومهم على الاحلام، كبيرهم وصغيرهم رجالا ونساء.

لماذا ينجب هؤلاء الناس؟

هل هو الأمل بالغد الأفضل؟

هل هم فعلا يحبون أطفالهم؟

كيف لك أن تحب شيئا وتضعه في كل هذا الجحيم؟

حتى اليوم أنا لا أعرف كيف استطاعوا أن يحبو شيء لم يخططوا له منذ البداية، فأكثر أطفالنا ولدوا من زيجات ليس لها أي معنى دون أي رابطة حب، كل ما جمعهم هو قراءة الفاتحة، ولا بأس سيحبون بعضهم بعد أن يأتي الأطفال.

لم يحبوا بعضهم يوما، لم يكن أكثر من اعتياد، أنت تعتاد كل شيء حتى الألم، أن قدرة الانسان فظيعة، نعم فظيعة لن أقول انها كبيرة أو قوية، انها فظيعة ومقيتة.

يستمرون بالإنجاب كالأرانب، كأنه الخوف على أن ينقطع هذا النسل النادر، لم يكن نادرا يوما، انها نسخ كثيرة ومتشابهة تحمل الأفكار ذاتها والصفات ذاتها، الحزن والفقر والتعب والهموم والاعتياد وكل شيء ذاته، ليكبر الأطفال ولا خشية عليهم أو على مستقبلهم فلا تزال الافران تصنع الخبز كل يوم، وسيتزوجون من نسخ متشابهة وسينجبون أنفسهم من جديد.

انهم ينجبون ليس رغبة في مشيئة الله، هم ينجبون فقط لإيجاد عذر ليقدموا تنازلات أكبر، مجرد مبرر ليس الا.

حتى في النوم نحن نخاف، ودائما نحتاج المشاركة، ولا بأس حتى أن يشاركنا أحدهم حلمنا، شعور الوحدة أصعب بكثير من كل ما يحدث، لا اعلم ربما أراد الجميع أن يبرر ما هو فيه وأنه ليس الوحيد المنكسر، ذلك ما جعلهم ينامون بالقرب من بعضهم البعض، لكل منهم حكايته، ولكل منهم قصته التي هي مأساة بحد ذاتها، لكنهم دائما أحبوا الاستماع الى حكايات الأخرين، فكم البؤس الموجود في هذه الحكايات، ترجع الرغبة في الاستماع اليها، عدم الرغبة بشعور الوحدة ومشاركة الحزن، ليس في سبيل أن نخفف عن الأخر، بل لنصبر أنفسنا ولنعرف أننا لسنا الوحيدين المصابون بالألم، حتى بما يخص الفشل، عندما نفشل نتمنى أن يفشل الجميع أو على الأقل من كان قريب منا وعلى دراية بفشلنا، ويرجع ذلك الى حبنا لأنفسنا ورغبتنا أن نكون الأفضل، نوع من الأنانية المستمرة منذ بدء الخليقة، فلم قد يرغب أخ في قتل أخاه، هل السبب هو حكمة وغاية في نفس يعقوب؟ بالتأكيد لا، لقد أثبت القتيل أنه أقرب الى الله من القاتل، حتى في هذه الأمور نحن نرغب أن يحبنا الله أكثر مما يحب أي أحد أخر، حتى لو كان أخينا أو زوجنا.

نعم نحن أنانيون الى درجة أن لدينا القدرة على قتل من هو أفضل منا.

علينا أن نحمل نفس القدر من الالام والجوع والفقر والمعاناة والتشرد كنوع من إرضاء الذات، تخيل معي الأمر.

مسرحية أو فيلم، هنالك دائما بطل، هؤلاء الأبطال نادرون جدا لديهم القدرة على الامر والنهي والفعل، في الجانب الاخر من هذه المسرحية هنالك أدوار ثانوية، أشخاص أكثر من الأبطال، هم موجودون كالديكور لتوفير صورة ووصف أفضل للمشهد.

كل من الطبقتين لديهما أدوارهم وقوانينهم التي يلتزمون بها، قوانين وضعها الأبطال لكي يسيطروا على أفعال وتحركات الطبقة الأدنى،

الابطال ليسوا ملزمون بها هم وضعوها فقط، وسواء التزموا بها أو لا هم غير ملامون ولا يستطيع أحد أن يلومهم، أما الطبقة الأدنى فعليها الالتزام، هي منذ البداية لا تملك القدرة او حتى التفكير بالقدرة على وضع قانون واحد أو إلزام أحد به، هاتين الطبقتين تفكران بالقدر الذي تستطيعان التفكير فيه، وهما منفصلتان عن بعضهما مهما بدا لك أنهما منسجمتين.

يستمر ذلك كل يوم مهما تغير الأبطال وتعددت المسرحيات فالمبدأ واحد، وقس على ذلك كل شيء.

أنت لا ترى علاقة بين ما سبق وما قلته الان لعلي أنا أيضا لا أعرف، ولكن أترك لعقلك أن يعمل هو وحده سيدلك على تلك العلاقة، نعم لعلك ستشعر ببعض الألم في رأسك ولكن لا بأس فهذه ضريبة التفكير، وإن شئت لا تفكر بشيء كن

أحمقا ببساطة وستكون سعيدا الى أبعد الحدود، ما دام لديك القدرة على الغباء افعله فالغباء موهبة، يخص الله بها أناس محددون ليجعلهم سعداء الى ما لا نهاية.

احتضنت جلنار أخيها وناما يحلمون كغيرهم بالغد مهما يكن، سيكون أفضل، تدثرا بلحاف صوف يحميهم من لسعات برد ربيع دمشق، بكثير من الحب والحزن بدأ الليل خطواته الثقيلة بالمرور.

في سماء القرية لمعت نجوم الليل البطيء، يحث علي خطاه في الطريق المتعرج، ترامت البيوت هنا وهناك تحمل كل تلك البساطة والطيبة والعفوية، سكون يخيم على القرية، أنهم الان في موتهم المؤقت، ففي الصباح يوم جديد من العمل.

قبل أن يصل بيته ببضعة أمتار، أوقفه صوت من خلفه، أنه صوت يعرفه جيدا ويحبه كثيرا، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، نعم انها وداد حبيبته الشقية، لقد غافلت موت أهلها المؤقت وقررت أن تحيا في هذه الليلة، فليال الموت كثيرة.

التفت علي اليها:

ـــيا ألهي هل تشرق الشمس ليلا؟ أم أنك توأم القمر؟

مشي علي نحوها وهي تقف على مدخل منزلها، أنها ترغب بضمه وتقبيله والنظر اليه مطولا، لم تعرف ماذا تقول.

_ايتها الشقية لقد اشتقت اليك!

وقف علي قبالتها وامسك بيدها.

كانت بشعر مموج متوسط الطول بني اللون، وعينان عسليتان ناعستان، شفاه صغيرة توسطت وجهها الأبيض الجميل، وضعت شال على كتفيها العاجيتان.

_أنا أيضا اشتقت اليك.

صمتت قليلا واختلط عليها الفرح بالخوف، واكملت بصوت متقطع:

_واحبك كثيرا، أنت تغيب كثيرا وأنا لا احتمل ذلك.

دمعتان شقتا طريقهما من عينيها على خديها، لم ترغب أبدا بهما فقد أصبح نظرها ضبابيا، مسحتهما بسرعة فهي لا ترغب أن يغيب عن عينيها ولو لبرهة.

ضمها علي الى صدره وجلسا على حجر أمام الباب، كانت صخرة كبيرة مربعة جلبها أبوها من الوادي فهو يحب النحت، لم يستطع إدخالها الى المنزل بسبب صغر الباب.

_وأنا أحبك كثيرا ولكن ما باليد حيلة، فأنت تعرفين كل شيء عن الاجازات والمهام في وحدتنا.

خلع علي سترته وألبسها لوداد التي سرت رعشة البرد في جسدها.

_لا تصمت! أخبرتك أنني مشتاقة لك وأنت تصمت؟

قالتها وداد بحدة وجدية كبيرة وهي تنظر في عينيه اللتين أقامتا ألف صلاة لها وألف قداس، لعلها تسرعت قليلا، كان عليها أن ترى كل ذلك في عينيه قبل أن تتكلم.

ضمها علي الى صدره وقبلها على شفاهها قبلة طويلة أرسلتها الى الحلم، الى الفرح،

لطالما صفعته عندما كان يحاول تقبيلها، لكن هذه المرة لم ترغب بشيء في الدنيا كلها الا به.

كانت يداه تعبثان بشعرها المموج وشفاهه تعبث بقلبها، ولم يكن منها الا أن ضمته اليها، أرادت أن تعتصره وتدخل بجسده أكثر، أن يتشكلا من جديد بلا وحي ولا معجزة.

انتهت غمرتهما لبعض بعد وقت ليس بقليل، ولكنه مر عليهما كأنه

ثانية واحدة، فعمر من الحب هو دقيقة فقط.

_اسمعي، في الغد سآتي مع أبي وأمي ونخطبك لي.

كان خبر رائع يزفه علي لها، وبقدر ما حمل من الفرح قدر ما حمل من الخوف، فوالدها رفض أخر خمسة رجال تقدموا لخطبتها لأنهم لا يزالون في الخدمة العسكرية.

لم يكن للأمر علاقة بالآراء السياسية انما كان فقط الخوف من مصير هذا الزواج، فالكثير من الفتيات أضحين أرامل في سن مبكر، لقد مات أزواجهم على الجبهات، مات الكثير منهم ولم يرغب بهذا المصير لأبنته.

_لماذا أنت ساكتة؟ ألم يعجبك الأمر؟

_بلى لقد أعجبني كثيرا فأنا لا أرغب بشيء في هذه الدنيا أكثر من رغبتي أن نكون مع بعض.

_هل تخبئين عني شيء ما؟

قالها علي بعد أن رأى التردد والخوف في عيني وداد.

_نعم، لا أعرف ما أقول ولكني أخاف أن يرفض أبي .... بعد أن استشهد زوج أختي تقدم لي أكثر من عريس ورفضهم لأنهم في الجيش، انه يخاف كثيرا وأنا الأن خائفة جدا أن يرفضك، فأنا لا أستطيع أن أعيش من دونك.

نظر علي الى الجانب ونار اشتعلت في قلبه، لم يعرف ما يقول ولكنه كان على استعداد لفعل أي شيء ليتزوج من وداد.

_وهل من يجلس في بيته هو بمأمن من الموت؟ الا يؤمن والدك

بمشيئة الله وبما يكتبه علينا جميعا؟ الا يؤمن أن لا أحد يموت وقد نقص من عمره شيء؟ الجميع يموت بعد أن ينقضي عمرهم سواء كان اللحظة أو بعد ألف عام، هل يضمن والدك أنه سيستيقظ صباحا؟

تكلم علي بغضب وارتفع صوته.

_لماذا تصرخ؟ أنا ما ذنبي؟ لقد أخبرتك بما يخفيني.

تكلمت وداد بصوت تقطعه شهقات البكاء.

_اسمعي، تبا للجميع، سأتزوجك رغم عن أنف الجميع، حتى والدك لا يهمني رأيه، أنا أحبك وأنت؟

تكلم علي وهو واقفا واستدار الى وداد وأمسك بيديها بقوة

_أنا أيضا أحبك، ولا أريد أحد غيرك.

سحبت يديها من بين يدي علي الذي ألمها بالضغط.

انحنى علي وقبل جبينها، وقال بصوت هادئ:

_اذهبي الان الى النوم وسوف نرى رده في الغد وبعدها لكل حادث حديث، لا تشغلي بالك بشيء، لن يحدد أحد مصيرنا سوانا، اتفقنا؟

هزت وداد رأسها وساعدها علي للنزول من على الصخرة، تركت يده ومشيت الى داخل المنزل، فيما وقف علي مكانه وعيناه تلاحقان خطواتها المتبعثرة والمشتتة والخائفة من غد.

كانا يتشاركان الخوف نفسه، ولعل اختفاء نجوم هذه الليلة سيكون بطيئا جدا، دخلت وداد المنزل، وحث علي خطاه الى منزله القريب ويدور الكون كله في رأسه، بكل ذلك الصخب.

نامت دمشق وهي لم تعتاد النوم، لم تمت دمشق يوما موتا مؤقتا، انها تحب الحياة ولا تفرط بدقيقة منها.

تبا للحرب التي جعلت حتى دمشق ترغب بالموت المؤقت، لعل الغد يحمل شيء من الحياة.

كانت الطرقات خالية بشكل موحش الا من بعض حواجز الجيش، كثرت بقع الظلام في هذه المدينة حتى وصلت الى اثنا عشر ساعة يتخللها ساعتان من الضوء وما أسهل إيجاد الحجج.

لطالما أحببت فكرة الطيران حتى أرى دمشق من الأعلى ليلا، كان ذلك قبل زمن ليس بالبعيد، والان عندما أفكر في ذلك أقول لنفسي ماذا عساي أن أرى في ليل دمشق، لقد أحببتها مدينة تعج بالحياة والحب، لن يعجبني او يروقني ابدا أن أرى موتها المؤقت هذا الامر لا يليق بمثل دمشق.

لطالما ارتبط الجمال بالحزن، فالكثير من الجميلات يملكن من الحزن أكثر ما يملكن من الحسن.

لكل شيء ضريبته، الجمال والفرح، والحب والكره، التقدم بالسن، الحياة والموت، الذكاء وحتى الغباء، ولكم يؤسفني أن هذا أصبح واقعا، سترفض دمشق الموت يوما ما وستعود لحياتها التي لطالما أحبتها، ولكم اشتاق اليها ولكم أرغب أن أستيقظ في الصباح ويعود كل شيء كما كان، ستوقظني أمي من موتي المؤقت وتحنو على رأسي وتقول: بسم الله! لماذا كل هذا الصراخ؟ بما كنت تحلم؟

نعم ارغب بشدة أن يكون كل هذا حلما، كابوسا لعينا وانتهى.

الخامسة فجرا يشق باص القرية الطريق، وأبو محمود يجلس خلف السائق وعيناه تلاحقان كل حجر وشجر على جانبي الطريق، كأنه يبحث فيهم عن شيء تركه

بينهن، لعلهن الذكريات ولعله الفرح، ولعله حزن عميق، لم أستطع تفسير ذلك لكنه بالتأكيد كان يبحث عن علامة ما، فقد كانت عيناه تتفحصان كل شيء على جانبي الطريق،

لقد كان وجهه دون ملامح، لم يكن غاضبا ولا فرحا، كأن الحياة توقفت فيه.

بدأ ضوء النهار يغزو الأرض، لم تشرق الشمس بعد،

قبل الوصول الى القرية بمسافة ألف متر، مر الباص بالقرب من المقبرة التي تبعد عن الطريق مئتا متر.

ـــيا بني أنزلني هنا.

قالها أبو محمود وهو ينظر الى المقبرة.

ـــيا عم لا أستطيع ان اتوقف الان، فالحاجز يرانا، سيسألني لم توقفت ومن أنزلت؟

قالها السائق معتذرا ونظر أبو محمود الى الأمام.

لم يكن هذا الحاجز موجود منذ ثلاثة أشهر، أكمل السائق عندما رأى الحيرة على وجه أبو محمود.

ـــانه حاجز لوحدات حماية الشعب، أذا رغبت أن أنزلك هناك فما من مشكلة، لكن أذا أنزلتك قبل الحاجز سيوقفونني وأتعرض للمشاكل وأعتقد أن ذلك لن يرضيك.

ـــ لا لن يرضيني بالتأكيد، سأنزل عند الحاجز.

توقف الباص على الحاجز الذي وضع اعلاما صفراء، في السابق كان علما واحدا يضلل كل أراضي الوطن، والان كل منطقة أو قرية تتقاسمها الاعلام.

فتح أبو محمود الباب الجانبي ونزل من الباص، أوقفه أحد العناصر الذي رطن بعربية ضعيفة:

_الى أين أنت ذاهب؟

_الى المقبرة فقد اعتدت أن أقرأ الفاتحة هناك قبل أن أصل القرية.

تكلم أبو محمود دون أن ينظر الى من يكلمه أو حتى أن يتوقف.

الكبار بالسن لديهم هذه الميزة، ميزة اللامبالاة، لقد عاشوا كثيرا ورأوا الكثير، وعي متأخر جدا، علينا جميعا أن نكون على تلك الدرجة من الوعي منذ الآن، ولكن هيهات، التجارب وحدها هي ما تعطيك الحق في الوعي، سندرك ذلك بوقت متأخر مثل الجميع.

حث أبو محمود خطاه المثقلة نحو المقبرة، البعيدة على من في عمره، شغل العنصر الذي نادى عليه دراجته النارية، ولحق به الى أن توقف في جانبه.

_اصعد معي يا عم سأوصلك الى هناك، لعل طريق السفر أنهك ما تبقى من قواك؟

ضحك أبو محمود ونظر الى الشاب:

_ما هو اسمك يا بني؟

_جيكار، اسمي جيكار.

_إذا يا جيكار، هل تخبرني ما هو حلمك؟

دار ذلك الحديث وأبو محمود يمشي والشاب يقود الدراجة بجانبه

_حلمي مثل حلم جميع الشباب، أن نحصل على استقلالنا وحقوقنا.

_وكم مات من أصدقائك؟

_الكثير، نعم مات كثير من أصدقائي.

_لماذا؟

_لأن الأمر يستحق، وأنا على استعداد للموت أيضا في سبيل قضيتنا.

_لو كان الأمر أسهل من ذلك لما قلت كل هذا ولعلي لم أكن لأراك، هو الأمر كما قلت، القضية السامية تستحق أن نموت في سبيلها، وأنا مثلك، علي تحمل التعب من أجل قضيتي وحتى الموت، اذهب انت الى قضيتك وحلمك، واتركني اذهب الى قضيتي وحلمي، وشكرا لمبادرتك اللطيفة، اسأل الله أن يحميك.

توقف الشاب على دراجته، وأكمل أبو محمود طريقه ماشيا.

لم يفهم الشاب ما قاله أبو محمود، لقد فهم الجزء الذي يتعلق به هو وبقضيته، أما ما تبقى فقد اعتبره كلام عجائز دائما يحمل معنى أكبر مما نعتقد، ولعله يكون لا معنى له، استدار الشاب بدراجته وعاد الى الحاجز فيما ابتعد أبو محمود في طريقه الى المقبرة.

لعل أكبر مشاكلنا هي كثرة قضايانا، لكل منا قضيته، وكل واحد منا مستعد للموت من أجل ما يعتقد به، وكل منا قضيته وحدها تستحق ان يموت من اجلها، لأنها القضية والفكرة الاصح.

لكم سيتغير ذلك عندما نعيش لما نعتقد وليس أن نموت لأجله،

الحياة هي توأم الموت رغم كل ما تراه من فروق بينهما، يحملان نفس الشبه بين الحب والكره،

انت ماذا تعتقد؟

هل تموت لأجل ما تعتقد؟ أم أنك تحيا لأجله؟

أيهما يؤثر أكثر؟

قبل أن يصل جيكار الى الحاجز بقليل، اقتربت سيارة بسرعة جنونية الى الحاجز وانفجرت به، تحول كل شيء امامه فجأة الى نار ورماد، هو على ثقة كاملة الان ان جميع من كان على الحاجز قضى نحبه، ضغط على الفرامل وقبل أن يمنحها فرصة التوقف رمى بنفسه من على الدراجة، لقد تزحلق عدة أمتار على اسفلت الطريق، كشط شيء من جلده في ساقيه ويديه، وقف وركض الى الحاجز، بحث دون جدوى عما يخبره أن أصدقائه لا يزالون هنا، كل شيء تحول الى رماد.

جلس هناك وسط بعض الاشلاء يصرخ كالمجنون، لعن السماء كثيرا، ثم عاتبها وحمدها وعاد ولعنها.

لم يتغير شيء، لقد ذهب الجميع حتى علمه الأصفر اشتعلت فيه النار وكادت ان تلتهمه كله، أطفئه ببعض التراب ولفه ووضعه في جيبه،

حاول أن يذرف الدموع لكنه لم يكن يبكي، كان جل ما يفعله هو الصراخ دونما أي وعي.

نظر أبو محمود من بعيد الى ما حدث، لم يرى التفاصيل كلها، سرت

قشعريرة في جسده لجزء من الثانية، هز رأسه مستنكرا وأكمل طريقه الى المقبرة.

لم يعد الموت يحمل كل تلك الصدمة والرهبة، لقد الفناه كما لو متنا الاف المرات سابقا.

وهذا ما يجعلني في بعض الأحيان اتجنب مشاهدة المسلسلات الدرامية، انهم يهولون الامر كثيرا، حتى لو كانت الكارثة أن الزوجة اكتشفت خيانة زوجها، أو أن البطل ابتعد عن حبيبته بسبب العمل،

كمية تلك المشاعر المقرفة تبعث على الشفقة بالفعل، فكل هذا الانفصال عن الواقع يثبت اننا اشرار جدا، اشرار أكثر من كل القتلة، لقد اعادني ذلك الامر الى وقت سابق عندما طلب الي صديقي المخرج كتابة فكرة، وبعد أن انتهيت من كتابتها كانت ملاحظته الأقوى هي أن المبرر غير كافي للقتل، فالقتل هو أكبر وأقسى قرار قد يتخذ ولم يرى المبرر كافيا.

يومها ضحكت بيني وبين نفسي، لا اعلم هل أنا واقعي لدرجة تكشف كم نحن اشرار ومقرفون، ام أن الجميع لا يعيش هنا في هذا الواقع.

بزغت الشمس تعلن بداية يوم جديد نعرف ان فيه الكثير من الألم، لكننا نأمل أن يتغير شيئا، لعلها معجزة من السماء، لعلها معجزة من عقولنا، ولعلها الرغبة في الخيال ومعاندة كل الأشياء، والمشي في كل هذا الجحيم نلونه كيفما نشاء، ونمنح أنفسنا الدافع على العيش فيه، سمه تبرير ان شئت، تبرير لحماقتنا التي تمنحنا الشعور المزيف بالفرح والسعادة، نوع من مواساة أنفسنا.

مشى أبو محمود في المقبرة يلقي التحية عليهم بعد أن قرأ الفاتحة.

لكم تمنى أن يعيش هذا الهدوء الذي يعيشونه، لعله كان حلمه ذلك النوم الابدي وتجربته، لطالما راودته الأفكار حول الموت وما بعد الموت، وطرح على نفسه العديد من الأسئلة التي لم يجد لها الإجابة، فهذه ستكون آخر تجاربه، ولعلها تكون فاتحة لتجارب جديدة.

لعل عدم عودة أحد من الموت، هو ما منح فرصة لتصديق كل شيء روحاني يتعلق بفكرة الموت وما بعده.

نميل نحن بشكل عام الى تصديق الأشياء التي ليس لنا دراية بها، او كيفية حدوثها، وبما اننا معطلون عقليا فالأسهل لنا ان نصدق.

وصل أبو محمود الى نهاية المقبرة، كان هنالك قبرا يبعد بعض الأمتار عن القبور الأخرى وبجانبه حفر قبر اخر وبقي مفتوح، لم يدفن فيه أحد، لم يكن لذلك القبر شاهدة، أخذت مكانها صخرة ليست بالكبيرة دون أي إشارة الى من يرقد فيه، حتى لم يكن قد بني له جدار صغير كحال القبور الأخرى، قرأ الفاتحة ثم جلس بجانب القبر وبدأ يتكلم:

_لقد ارتحت كثيرا عندما رأيت أن القبر الاخر لا يزال على حاله، لقد خشيت أن يدفنوا أحد بجوارك غيري فأنا أغار عليك كما تعلمين.

قالها مبتسما كمن يتحدث الى شخص أمامه، ومد يده الى جيبه وأخرج الصورة التي قام بتعديلها عند المصور.

_أنظري، لقد قابلته، أنه مشتاق اليك كثيرا وكان يتمنى أن تكوني معي، لم يعرف بعد بموتك ولكني أخبرته أنك لا تستطيعين القدوم.

وضع الصورة على القبر، وجه الصورة على التراب.

تلعثم كمن اكتشفت خدعته.

_ أعلم أنني تأخرت كثيرا، لكن ابنك هو الملام، لم يسمح لي بالعودة الى البارحة، عليك أن تؤنبيه هو وليس أنا.

لمس بيده تراب القبر مبتسما، لكن الحزن يلف كل تفاصيله.

_لا تخافي لم أتزوج ولن أتزوج، فمن غيرك يستحق أن أقول له يا زوجتي؟ بالتأكيد لا أحد وأنت تعلمين ذلك، لذلك كفي عن الغيرة.

خرجت من عينيه دمعة وسقطت على تراب القبر، وانحنى ضهره وأجهش بالبكاء.

_نعم أنه بخير لكن أنا لست بخير، أنا متعب جدا، هذه الحياة من غير وجودك متعبة جدا، هلا تستيقظين وتعينيني على حمل كل هذه الاثقال؟ أنا أشتاق اليك

كثيرا، هذا البيت أصبح مثلي عجوزا جدا فقد غاب من يعطيه الفرح والشباب، والكلمات أصبحت ثقيلة على لساني.

استلقى بجوار القبر على التراب، توسد يديه المتشققتين ودموعه تساقطت متلاحقة لتروي تراب القبر، وتكلم بصوت يقطعه البكاء:

_لم أستطيع رؤيته، انه يقاتل على الجبهات وهم كل يوم في منطقة جديدة وهذا كان سبب تأخري، لكنني تكلمت معه عبر هاتف صديقه، انه بخير، وطلب مني أن أقبلك وأسلم عليك.

قبل تراب القبر، وصمت قليلا لعل غصة بكاؤه تذهب ولكن دون جدوى، استمر بالبكاء مطولا وكل تلك الحرقة والحزن في قلبه.

_هل تذكرين عندما أخبرتك أني أحبك بكل قوتي؟ لقد ذهبت قوتي وبقيت أحبك.

سطعت الشمس فوق مدينتها مدينة دمشق، تحث في سكانها الحياة والحلم والعمل، دب الجميع في شوارعها كمستعمرة نمل، الفرق الوحيد رغم كل تكتلاتهم وعملهم كان هو العمل كل لأجل ذاته بعيدا عن ثقافة النمل، ولعل في ذلك شيء من الحقيقة الذاتية التي نعرفها جميعا مهما حاولنا اظهار غير ذلك.

بعيدا عن فكرة مجتمع النمل، كل حمل أعبائه وحده وبان ذلك جليا في وجوههم المكفهرة، والسعي مجبورا كل الى عمله الذي امتهنه،

كالسياسة كالقوانين، سواء كانت دينية أو...

تعرف ماذا؟

دعك من هذا كله، لا اخلاقيات في هذا المجتمع، لا وجود للمدينة الفاضلة، انها مجرد حلم أو رغبة بالحلم، هذه الطباع نحملها جميعا بعيدا عن الكلام المنمق والمثالية المزيفة، عقولنا وارواحنا وقلوبنا جميعها تحمل الشر، ولم يكن يوما هنالك رادع ذاتي لنا، سواء كان رادع أخلاقي أو ديني أو قانوني.

وضعت كل التشريعات والقوانين دون استثناء لأننا ميالون للشر، وضعت خوفا علينا من أنفسنا، فلكم يصادفك موقفا تلعنه بالظاهر ولكن لو أتيح لك فعله لفعلته مهما تمنعت عن ذلك، تبقى الرغبة الحقيقية في داخلك موافقتك ومباركتك لكل تلك المواقف.

الانسان عدو ما يجهل، لم أؤمن يوما بتلك العبارة.

الحقيقة ان الأنسان هو عدو نفسه، والطامة الكبرى أننا عندما نقول الأنسان فذلك يعني جميع الناس بكل ألوانهم ووجوههم ومستوياتهم.

افترقا جلنار وأخيها كل في طريق، وكل في أمل، حملا الورود والعلكة وجالا في وجوه الناس، البحث عن الأجوبة الذاتية لا يزال مستمرا، والرغبة بسماع المزيد من القصص القصيرة التي يعيشانها كل يوم أيضا مستمرة.

لا تزال الوردة خلف اذن جلنار لكنها بدأت بالذبول، لكم أحبت لو أنها تركتها في تربتها، لما كان لها هذا المصير المحتوم مهما طال بها الأمد.

اكتظت المقاهي بالعشاق المزيفين، كل منهم أحب فكرة أن يكون محبوبا ومرغوبا عند الآخر، وعلى مبدأ لا تكن مع من تحب كن مع من يحبك فدائما من يحب أكثر هو المستعد لتقديم التنازلات أكثر، اعتقد جلهم بمحبة الآخر لهم، وفي ذلك

إرضاء لهم بشكل من الاشكال، ولكن في الحقيقة لا أحد منهم أحب الآخر، جميعهم أحبوا ذواتهم، ويبدو أن قناع العاشق والعاشقة سيستمر طويلا، ولن يكتشفوا الأمر حتى يعيشوا في بيت واحد، ليكتشفوا أن الأمر برمته كان خدعة، وخداع لأنفسهم بالدرجة الأولى.

كانت تلك المقاهي هي الزبائن المفضل لجلنار، فعلى العشاق أن يثبتوا لبعضهم الحب الذي لطالما ارتبط بالورد، أنا صدقا لا أعرف العلاقة في ذلك ولكنها أصبحت طقس دائم.

لقد فهمت جلنار ذلك منذ مدة قصيرة ولا ألومها، عليك أن تستغل جميع الفرص لنفسك، وهذه البيئة التي تؤمن لك الاستمرارية، سمه تسول، سمه انتهازية، سمه ما شئت، ولكن بالعودة اليك أنت ستفعل الشيء نفسه مهما قلت عكس ذلك.

جالت على طاولات العشاق ووضعت وردتان على كل طاولة، ثم عادت إليهم، كان البعض كريما جدا معها، والبعض الآخر بين وبين، وكان القلة القليلة كعادتها واقعيين.

تمنت للجميع العيش بحب وسعادة، وخرجت من المقهى اوقفتها الفتاة التي تعمل في المقهى وأخذت منها وردة، لم ترغب جلنار بأخذ ثمنها فهذه مصلحة متبادلة، ولكن الفتاة رفضت الا أن يكون لكل شيء ثمنه، خرجت جلنار وأخذت الفتاة الوردة ووضعتها في جيب قميصها.

لا أعلم لم فعلت ذلك، هل هو نوع من الاكسسوار؟ أم أن لها في الوردة هدف آخر؟

نهار دمشق طويل كعادته، سنكتشف ذلك لاحقا.

أكملت جلنار جولتها على المقاهي وكانت النتائج ذاتها في كل مرة،

لقد جمعت مال لا بأس به ستستطيع شراء الثياب الجديدة به لها ولأخيها، وعليهم أيضا أن يشتريا باقة من الزهور هدية لوالديهما،

بقيت في باقتها وردتان أو ثلاثة، ستجد من يشتريهما من المارة.

هذا اليوم مميز بالنسبة لها، لقد باعت ورودها بساعات قليلة، ستعود الى الحديقة بعد قليل بانتظار أخيها.

كان عمل أخيها كقلته ويدر مالا قليلا جدا لا يتجاوز المئتين ليرة، لم تدعه يعمل من أجل المال، بل لينبت له بعض الأنياب وليحس بقيمة كل شيء خاصة المال، فقد تحول كل شيء في هذه المدينة للبيع، بداية بماء الشرب وليس انتهاء بالجنس.

دعك من الشاعرية والصدمة على وجهك، الأمر ليس مقلقا الى هذه

الدرجة، هي الفرص لا أكثر.

على الجميع أن يملك مخالب، وعلى قدر أهل القدرة تأتي البراثن،

مشت الى الحديقة، وافترشت العشب كعادتها وبدأت بملاحقة المارة بعيونها تبحث فيهم عن شيء ما، وتحاول جمع كل تلك الملامح في ذاكرتها، هي ذاتها لم تعرف لم تقوم بذلك، لعلها أرادت الجمع بينهم لتحصل على ملامح لشخص واحد.

على الرغم أن جميع الوجوه حملت الطابع نفسه، الا ان البعض كان في شكله وشكل وجهه مميزا.

لا أعلم، كانوا نسخة واحدة، حمل بعضهم بعض الملامح، لا أعلم هل أسميها المميزة أم أسميها نسخ مشوهة نوعا ما، وبغض النظر عما نصفهم به الا أنها أطالت النظر أكثر في أولئك الذين حملوا بعضا من الاختلاف.

_أنت أيضا أنهيت عملك مبكرا اليوم؟

قطع الصوت الأجش على جلنار الصور في مخيلتها.

كان رجل في الثلاثين من العمر، اسمر البشرة بل كان أسودا بوجه مخيف احترق نصفه وتشوه، كان يرتدي ثيابا نظيفة وأنيقة، اعتادت جلنار رؤيته يجول في الحديقة يأخذ البعض الى عمل دائم، ويبدوا أن ذلك العمل جيدا فلم يعود من ذهبوا معه الى الحديقة، وما عادوا افترشوا هذا البؤس.

_نعم هذا صحيح، لقد وفقت اليوم.

جلس بجانبها ونظر بعيدا واضعا نصف وجهه المشوه في الجهة

الأخرى، راقب أيضا ملامح الناس، لم يحب فيهم الاختلاف عنه او اختلافه عنهم، نظر الى العشب وبعث ذلك في نفسه راحة أكبر،

_أنت قليلة الكلام، إنك كالعجائز ولكن دون ثرثرة.

_ماذا يجب علي أن أقول؟

لطالما كانت قليلة الكلام، هي لم تحب يوما أن تقول ما ليس له هدف

_ لا تقولي شيئا، ولكن الى متى ستفترشين عشب هذه الحديقة؟ ألا تريدين أن تعملي في منازل الأغنياء وتأكلين مما يأكلون بأجر جيد بعيد عن كل هذا التعب اليومي؟

لم تكن محاولته لفتح حديث معها سيئة بل بعثت الفضول في نفسها لتسمع أكثر، لكنها لم تقل أو تجيب بما يشفي غليله لينتقل الى الخطوة التالية فأراد سماع رأيها:

_ها لم تجيبي؟

_من منا لا يرغب في ذلك؟ هل تعتقد أن أحدا سيسعد بهذا البؤس اليومي؟ ولكن لا أستطيع أن أبتعد عن أخي الصغير.

هز رأسه برضا:

_لا تخافي سيكون معك أيضا.

_حسنا، أنا موافقة، ولكن سنترك الأمر للغد لأن علي أن أقوم بأمر ما.

ابتسم الرجل بحنو، وأخرج من جيبه ورقة وأعطاها لجلنار:

_هذا رقم هاتفي، متى ما كنت جاهزة اتصلي بي فقط، وبكل الأحوال أنا سأمر بعد غد أيضا، وسوف أرى أن كنت جاهزة.

هزت جلنار رأسها ووضعت الورقة في جيبها، ووقف الرجل ومشي مغادرا الحديقة.

لم تفكر جلنار كثيرا في الأمر ففي بالها شيئا آخر، عليها ان تنتظر اخيها الصغير مهند وأن يذهبا ليشتريا الثياب.

وقفت وقررت أن تذهب وتبحث عنه لعله لم يبيع شيئا من علكته وسيتأخر كثيرا.

مشت على العشب وقفزت من فوق السور، وجالت بخطى سريعة في شوارع دمشق تبحث عن شريكها في الشقاء.

في المقهى الذي قصده رامي، جلس على طاولته المعتادة يكتب على حاسبه المحمول، اقتربت منه الفتاة ذاتها تحمل فنجان القهوة ووضعته على الطاولة، ثم أخرجت الوردة

من جيبها ووضعتها بجانب الفنجان، لم يفهم رامي ما قد يكون المغزى من الوردة ولم يرغب أساسا بالمعرفة واكتفى بقول:

_شكرا.

_لا شكر على واجب.

_واجبك أن تقدمي القهوة وليس أن تقدمي وردة، وبكلتا الحالتين شكرا على الاثنتين.

صمتت الفتاة ولم تعرف بما تجيب، خافت أن تطلب شيئا منه، خافت من ردة فعله فهو غريب الاطوار لا يمكن التنبؤ بما قد يفعل، قررت أن تؤجل طلبها الى وقت آخر، هزت رأسها وغادرت تقدم الطلبات للزبائن في المقهى.

حاول رامي أن يكتب ولكنه كلما كتب شيئا يعود ويحذفه، فما يشغل عقله هو لقائه بليلى مساء اليوم، لقد اتفقا في الصباح على ذلك فكر فيما عساه أن يخبرها، هي غدا او بعد غد على ابعد حد ستغادر الى مدينتها، ولكم رغب البارحة في أن تبقى معه الى الأبد.

لماذا يحمل رامي هذا التناقض، فقبل لقائه بليلى، كانت نظرته للحب مغايرة تماما لما يشعر به الان، ولطالما أخبرها مرارا عن نفس الامر، لم يعد الحب موجودا في قاموسه، ولطالما رأى في العلاقات العاطفية فصل من فصول الدراما المتبادلة، شغل الأمر كل تفكيره، لقد أحب في السابق فتاة لمدة أربع سنوات، وأنتهى كل شيء عندما تم سوقه الى خدمة العلم، هي تزوجت، وهو ايقن أن الامر برمته كان مجرد اعتياد، والانسان يستطيع التأقلم على كل شيء حتى أوجاعه، وأن نهاية كل قصص

الحب ستترك أحد الطرفين مدمرا، ليس مدمرا بالمعنى التقليدي، انما هو نوع من الاكتئاب فالقلوب صالحة للاستعمال مرة واحدة.

إذا كيف أحب ليلى؟

وما الذي غيرته فيه؟

لم يكن سوى لقاء واحد، سبقه ألف لقاء مع غيرها، لم تغير تلك اللقاءات كلها من نظرته للأمر بشيء.

وقفت الفتاة بقربه وقالت ممازحة:

_انت لست على سجيتك هذا اليوم، أنت لم تكتب شيئا حتى الان.

نظر رامي اليها وابتسم كنوع من رد الجميل:

_لعل الوحي غادرني اليوم.

_هل يزعجك أن أجلس معك قليلا؟

أشار برأسه موافقا

ابتسمت بانتصار، وأشارت الى صديقتها أن تغطي غيابها لبعض الوقت وجلست قبالته، أغلق رامي شاشة الحاسب وأشعل سيجارته ونظر اليها ينتظر أن تقول شيئا.

هي فعلت الامر ذاته، كانت بانتظار أن يقول شيئا ولكنه كان مخيبا للأمل كعادته مع كل من اقتربوا منه.

_أنت لم تسألني عن اسمي حتى الآن!؟

قالتها بعد نفاذ صبرها.

_هل أنت من أختار أسمك؟ ام أنه فرض عليك؟

_هي توقف، أنا غير ملمة بالألغاز التي تستخدمونها دائما، هون عليك وكن بسيطا معي، عاملني على درجة استيعابي.

قالتها أيضا بابتسامة عريضة كمن تصور إعلان لمعجون الاسنان.

_حسنا ما اسمك؟

_اسمي جوري وأريد أن أطلب منك شيئا.

_تفضلي أنا أسمعك.

_ينتهي عملي الساعة العاشرة مساءا، وأرغب اليوم أن توصلني الى المنزل مشيا، هو ليس بعيد ولكنها فرصة لتبادل الحديث.

_من رأى ردة فعلك أمس كان ليعتقد أنك حبيبة لأحدهم وعاشقة أيضا.

اختلط الامر على رامي ولم يعرف المغزى من طلبها.

_نعم الامر كذلك وأردت أن أطرح عليك بعض الأمور طمعا في نصيحة أو حلول، أي يكن.

بدأت زميلتها تحثها على الإسراع مما شتت تركيزها، وعدم رد رامي زاد الطين بلة، فقررت أن تعرف قراره على عجل.

هل ستلبي رغبتي؟

_سأخبرك شيئا، أنا لدي موعد هذا المساء، وإذا أنتهى الموعد باكرا

سآتي الى هنا واصحبك.

وقفت جوري وقالت على عجالة:

_هل تعدني؟

_أعدك بما أخبرتك به! أنا لم أعطي وعدا بأنني سآتي، الأمر مرهونا بالظروف.

_حسنا سأنتظرك.

قالتها وغادرت الى عملها فيما بقي رامي في حيرة من أمره، ما الذي تريده هذه الفتاة؟ ولكن سرعان ما طرد الأمر من عقله ليفكر في ليلى، وكيف سيكون لقاؤهما الثاني؟ وما عساه أن يخبرها؟ وهل عليه أن يعترف لها بأنه أحبها؟

كل تلك الأمور في رأسه جعلته يوقن أنه لن يستطيع كتابة أي كلمة قبل أن يرى ليلى، رغم ذلك فتح حاسبه وبدأ بالكتابة والحذف مرارا وتكرارا، لعلها كانت رغبته في أن يمضي الوقت، لم يكفه النظر كل قليل الى الوقت على شاشة الحاسب، بل فتح هاتفه مرارا وتكرارا ينظر الى الوقت لعل شيء ما قد تغير، رسالة ما على سبيل المثال.

سيمضي هذا الوقت بطيئا جدا، عليه الان أن يخرج من المقهى ويهيم في تلك الشوارع لعل مرور الوقت سيكون أسرع.

حث خطاه على الأرصفة، وقام بعد الأشخاص الذين يمشون، والسيارات أيضا وألوان السيارات وواجهات المحال التجارية.

لكم رغب أن يستطيع التحكم بعقارب الوقت وينتهي هذا الانتظار، ولكن كل شيء كان دون جدوى، عليه أن ينتظر وحسب.

في بيت أهل وداد جلس أبوها وأمها في غرفة الجلوس، وجلس معهم علي وأبوه وأمه.

كانوا ضيوفا ثقال على صدر أبو وداد، فهو يعلم لم هم هنا وسيبتسم كثيرا ويحاول تهوين تبريره، وأن يكون كثير المراعاة لإحساسهم عندما ينتهون من طلبهم، فهم في النهاية جيران وأهل.

كان بشارب كثيف غطى معظم فمه، وذقن لم تحلق منذ ثلاثة أيام أو أكثر، كان بحاجبين كثيفين ووجه مجعد، اسمر البشرة، كان الشيب قد غزا رأسه، في الخمسين من عمره، صحته جيدة، يطيل النظر بمن يتكلم ويترك عنده انطباعا جيدا بالاستماع، كان قليل الكلام والابتسامة.

ـ لم نسمع رأيك يا أبو وداد؟

قالها أبو علي مبتسما كمن يحمل بشرى للأخر.

تكلم أبو وداد بصوته الأجش:

_اسمع يا أبو علي، ابنك هو ابني أيضا، ويعلم الله كم أحبه وأحترمه، ولكن أنت تعرف ككل أهل القرية ما رأيي في الموضوع، أنا لن أزوج ابنتي الى عسكري فما حدث بأختها يكفي، وأنا أرى نحولها كل يوم وفكرها الشارد والحزن ..

قال علي مقاطعا:

_هل ستوافق ان هربت من الجيش؟

_يا بني الأمر ليس كما تعتقد، هل تظن أني سأكون راضيا أن

تقضي عمرك هاربا وملاحقا؟

_سأذهب الى لبنان وأخذها معي إن كان هذا ما يقلقك.

وقف أبو وداد مقاطعا ومنهيا النقاش:

_ابنتي ليست للزواج، وإذا أنهيت خدمتك وكانت لا تزال بلا زوج سأوافق على زواجك منها.

وقف علي وابيه وامه لا يدرون ماذا يقولون، مشى علي باتجاه الباب ووقف عند الباب ونظر الى أبو وداد.

كانت وداد تقف في المدخل الذي يؤدي الى المطبخ والغرف، وقعت عينا علي عليها وهي تبكي.

_وداد لن أتركها تتزوج غيري سواء وافقت أم لم توافق، ستكون زوجتي رغم عن الجميع، ورغم عنك أيضا.

قال ذلك بصوت عالي وغاضب ثم خرج وأغلق الباب بقوة.

وقف أبو علي يسأل أبو وداد أن يعذر طيش ابنه.

_لا بأس جميعنا كنا هكذا وأنا أعذره.

قالها أبو وداد متفهما، وقد رسم ابتسامة لا مبالاة على وجهه.

خرج أبو علي وزوجته وودعهما أبو وداد على الباب، ثم اغلق الباب ودخل وجلس في مكانه.

اقتربت وداد ووقفت قبالته وعيناها تحمل كل ذلك الحزن والخوف والصراع الكبير بين حبها لعلي وحبها لأهلها.

_سأقتل نفسي وستحمل ذنبي بقية حياته!

قالتها وداد وغادرت تركض الى غرفتها.

وقف أبو وداد ومشى الى باب غرفتها المغلق ووقف هناك، وأشار لزوجته أن تذهب وتهدئها، فهزت زوجته رأسها، ثم قال بصوت عالي:

_اللعنة على أبيك! سوف أقتلك بنفسي ان فكرتي أن تؤذي نفسك، نعم نسيت أهلك وكل شيء من اجل ذلك الحقير الوقح، وتريدين أن تقتلي نفسك الآن لأحمل الذنب أنا؟

قال ذلك وهو يغادر المنزل ليترك لزوجته المجال لتهدئتها.

في غرفته، جلس علي وحيدا واغلق الباب على نفسه يدخن سيجارته بنهم، أخذ هاتفه واتصل بوداد التي ردت سريعا.

_هل أنت مستعدة للهرب معي؟

قال ذلك ما أن فتح الخط.

_لو كان يحبك فعلا لما رفض أن يزوجك من تحبين .. اسمعي سأترك لك وقت حتى الغد لتفكري في الامر، ان كنت بالفعل تحبينني أنا واثق أنك ستقبلين بالأمر.

_لن تخوني أهلك ولكنك مستعدة لأن تخوني قلبينا؟

قال ذلك علي غاضبا صمت قليلا ثم اكمل:

_سأترك لك التفكير بالأمر الى الغد، وأنا أنتظر ردك .....الى اللقاء

أغلق علي الهاتف ووضعه جانبا وأطفئ سيجارته في صحن

السجائر الممتلئ أخرج من خزانته زجاجة عرق وجلس على سريره

مشيا جلنار ومهند على رصيف الطريق، صفت البسطات بالقرب من بعضها، بسطات للثياب وأخرى للأكل والبعض الأخر للوازم المحمول، وعلى الرغم من المادية الضعيفة للأكثرية الا انهم كانوا مستهلكون الى درجة كبيرة.

لقد جالت قبل ذلك على محلات الألبسة لكنها لم تجرؤ على الدخول عندما رأت الأسعار على الألبسة في الواجهات، فقد كان الرقم أكبر من أن تستطيع قراءته، وكل ما كانت تملكه من مال لم يكن أكثر من عشرة ألاف ليرة.

حتى أسعار البسطات لم تكن بالمتناول، ما دفعها الى محلات الثياب المستعملة، كانت الثياب في تلك المحال على الرغم من انها مستعملة الا انها كانت بجودة أفضل من الثياب الجديدة في المحلات الأخرى والبسطات، فقد كان الربح بأقل تكلفة هو السائد في هذه الفترة، وأكثر المنتجات هي منتجات تجارية، ولن أبالغ ان قلت للاستعمال لمرة واحدة ورغم ذلك كانت الأسعار باهظة.

دخلت الى محل بيع ثياب مستعملة ممسكة بيد أخيها الصغير، واقتربت منها فتاة تعمل في المحل:

_هل تريدان ثياب لكما ام للكبار؟

قالتها الفتاة مبتسمة وهي تنظر الى جلنار.

_نعم لنا ولكن هذه الثياب كبيرة.

تكلمت جلنار بشيء من الخيبة.

ضحكت الفتاة وطلبت منها ومن أخيها أن يتبعاها الى الداخل.

كان المحل بشكل طولي، وضعت الثياب في كل مكان منه، لم يكن سوى ممرين ضيقين على طرفي المحال وسط الثياب التي فرش بعضها ارضا وعلق الاخر على شبك على الجانبين وفي الوسط.

_هنا تجدان ما يناسبكما، سأترككما الأن تختاران الثياب، علي أن أكمل عملي.

تركتهما الفتاة وذهبت الى طرف المحل، أخرجت كيس كبير من الثياب وبدأت بفرز الثياب كل حسب جودته.

كانت تعمل والابتسامة لا تفارق وجهها حتى ظنت جلنار أنه عيب خلقي فيها.

لا اعلم ما الذي كان يدعو الى ذلك الفرح على وجهها، كان أمر بعيد كل البعد عن الواقعية.

اختار مهند كنزة لنفسه ووضعها على صدره وهو ينظر الى جلنار، فأشارت برأسها أن لا، لم تحب اللون القاتم، وبينما كانت تقلب بالثياب وجدت سروال جينز وقميص جينز له، كأنهما قطعة واحدة بلون أزرق، لم يبدو أنهما قد لبسا أكثر من مرتين.

_جميل جدا انه يليق بك!

قالتها الفتاة وهي تفرز الثياب وتنظر بطرف عينها الى جلنار.

_وكم ثمنها؟

_الاثنان بخمسة الاف، وقطعة واحدة بثلاثة ألاف.

كان السعر أشبه بالصدمة على جلنار، ولكنه كان أقل بقليل مما رأته في جولتها على المحال الأخرى.

_حسنا انه مناسب ويليق بك اشتريه!

قالها مهند بعد ان رآها تضعه على جسمها لترى ان كان يناسبها.

_هل نسيت أن علينا أن نأخذ لك ثياب أيضا؟ وعلينا أن نترك بعض المال من أجل شراء الورود والعلكة؟

هز مهند رأسه بيأس

_اسمعي أنا ثيابي لازالت تقاوم لبعض الأيام الأخرى سأشتري لاحقا

كان يدور همسهما على مسامع الفتاة.

وضعت جلنار يدها على رأس مهند بابتسامة وحنو.

وضعت جلنار ما بيدها وبحثت عن ثياب لأخيها حتى وجدت ما يناسبه، كان سروال جينز وكنزة ربيعية بكم كامل عليها بعض الرسوم الجميلة.

_كم ثمن هاتين؟

لم تعرف الفتاة ما تقول ولكنها قالت مجبرة محاولة أن تشيح نظرها عنهما وقد اختفت ابتسامتها:

_السراويل أسعارها ثلاثة الاف، والقمصان والكنزات اسعارهم الفين

أخرجت جلنار المال الذي كان أغلبه من فئة المئتان ليرة والخمسين ليرة بدأت بالعد والجمع حتى أصبح المبلغ خمسة ألاف وأعطته للفتاة وأخذت بيد مهند وخرجا من المحل، لم يكن أحدهما سعيدا بالنتيجة فلزما الصمت هما الاثنان، وحثا خطاهما على الرصيف والتفا عند

أول مفرق، هما الاثنان أيضا لم يعرفا الى أين قد يذهبان.

أوقفهما صوت من الخلف:

_هي أنتما.

توقفا ونظرا الى الخلف، كانت الفتاة التي تعمل في المحل.

_ماذا!؟ نحن لم نسرق شيء!

قالتها جلنار مستفسرة.

اقتربت الفتاة منهما وأخرجت الثياب التي أرادت جلنار أخذها لنفسها، أخرجت الثياب من تحت قميصها الذي ترتديه.

_تفضلي، هذه هدية مني لك.

_لا لن أخذها، سوف يتسبب هذا بطردك.

_لا تخافي لن يتسبب هذا بشيء، لم يراني أحد، أرجوك أن تأخذيها فهي ستكون جميلة جدا عليك.

ترددت جلنار في أخذ الثياب، لكنها رأت في عينا الفتاة رغبة صادقة أن تعطيها الثياب ومدت يدها مطولا.

_هيا سأتأخر على العمل .....أرجوك.

أخذت جلنار الثياب وشكرت الفتاة عليهما، هزت الفتاة رأسها برضا وعادت أدراجها على عجل الى المحل.

جلست جلنار على الرصيف وجلس مهند بجانبها، ولأول مرة تكون

كل أطراف القضية سعداء، بداية بالفتاة التي تعمل في المحل وانتهاء

بجلنار ومهند، لعلها المساعدة دون طلب او العطاء دون انتظار

مقابل، يفنى الأنسان وهو يساعد نفسه، لكنه لم يجرب يوما أن يساعد غيره، جربوا ذلك، ستجدون بالفعل أن لحياتكم معنى وقيمة، وستكونون راضين عن أنفسكم الى ابعد الحدود، ابذلوا الخير في كل مكان، ولا تحددوا أي مكان يستحق ذلك أكثر من غيره، أو أن هذا الشخص لا يستحق، أبذل بدافع أن تكون انسانا عندها لن يكون لديك فرق أين قد تبذل أو كيف تبذل.

الى أين ذهب تفكيرك؟ دور العبادة؟

تبا.... دور العبادة فيها ما يكفيك ويكفيها!

حسنا، عليك أن تنسى الأمر.

_سنذهب الى الحلاق وسنقص شعرك ونصففه، ولعلي أيضا سأقص شعري.

قالت ذلك جلنار وأخذت بيد مهند واوقفته ومشيا.

_هل تمزحين؟ أنت فتاة كيف تقصين شعرك؟

هي لم تكن تمزح، كلما فعلته فكرت في نفسها قليلا، لطالما رغبت أن تمتلك شعرا قصيرا، لقد رأت فتاة في احدى الصور وأعجبها الأمر كثيرا، انها تنضج سريعا، أسرع من عمرها.

_ولم لا؟ الا ترغب أن يكون لديك أخ بدل أخت؟

قالتها ضاحكة مما دفع مهند للضحك، ولكنها لم تكن تمزح، كانت تقصد ما قالته، أرادت الخروج من جلد الفتاة، وهي الان على درجة

كافية من الوعي لتعرف ما تريد، لقد أثقلها شعرها مرارا، لكم علق شعرها في سياج الحديقة عندما تقفز، ولعل هذا أكثر سطحية مما تفكر فيه الان، كانت ترى في المجمل أنها مادامت في ثوب الفتاة فهي ستكون مجرد جائزة، وسيحسب عليها كل فعل تفعله مهما كان بسيطا أو من حقها.

قصدا صالون حلاقة في الشارع الاخر، كان فتى في الثالثة عشرة من عمره، لقد ترك الحلاق الصالون وذهب لقضاء بعض الشؤون المهمة، لقد كان مهند جائزة بالنسبة له، هو يعرف الان المهنة نظريا ولكن لم يتركه صاحب الصالون يقوم بفعلها مرة، فهو يخشى من خسارة زبائنه ولن يتركه يعمل حتى يتأكد أنه بالفعل على قدر المسؤولية،

قام بالتصرف بوعي وإدراك وكأنه صاحب الصالون وله باع طويل في المهنة، قام بالترحيب بهما والابتسام والثرثرة وكل الأمور التي يقوم بها الحلاقين.

اكتشفت جلنار كذبته سريعا، لكنها أحبت محاولته، وكان جميلا وحسن الهيئة، نعم هي الان تنضج.

_اسمع، أنا أعلم أنك لم تقم بقص شعر أحد يوما، لكن اليك الامر، ستحلق شعر مهند وإذا قصصت له قصة جميلة، سأقص شعري أنا أيضا وسأعطيك المال، وان كان عملك سيئا لن اعطيك شيئا وسنغادر.

_حسنا اتفقنا ايتها القوية، تعال يا مهند لنغسل شعرك فيبدو أن السماء لم تمطر منذ عامين.

قالها ضاحكا، أنه يمتلك حس الدعابة وذلك أعجب جلنار خاصة عندما ناداها بالقوية.

مضى الوقت في دمشق رويدا رويدا واقترب لقاء ليلى ورامي.

خرجت ليلى وسمر من منزل سمر، فقد اخبرت أهلها أنها ستذهب مع ليلى وتريها دمشق في المساء، كانت تريد لقاء حبيبها لذلك كانت تلك الحجة مرضية للجميع، وعلى سمر وليلى أن يسرقا اليوم بعض أوقات الحب، كل شيء في هذه المدينة يسرق، وكل شيء يعني كل شيء، بداية بالحب وليس انتهاء بالأحلام.

كان رامي ينتظرها في مدخل سوق الحميدية، كان يوما طويلا جدا بالنسبة له، كان يذرع المسافة بين مدخل السوق وتمثال صلاح الدين جيئة وذهابا حتى حفظ عدد أحجار جدار القلعة.

ما أن التقت سمر بحبيبها حتى غادرتهما ليلى تحث خطاها بسرعة، لقد مر الوقت عليها ببطء أيضا.

التقيا بالقرب من التمثال بكل ذلك الشوق، ازدحمت كلماتهما التي حضراها مسبقا في رأسيهما، ازدحمت حتى لم يعرفا انتقاء المناسب منها.

_ها أنت أخيرا! وجميلة أيضا في كل أطوارك بهدوئك وغضبك.

قالها رامي مبتسما محاولة منه في أيصال شيء مما يشعر به، ومد يده مصافحا يد ليلى الناعمة والمرتجفة.

_أخبرني بشيء جديد، فلطالما كنت جميلة.

قالتها مرتبكة وهي تبحث عن الكلمات الاسهل.

مشيا عبر سوق الحميدية ثم ساحة الجامع الأموي، لم ينسيا أخذ بعض الكستناء من رفيق الامس.

خرج مهند من صالون الحلاقة وخرجت جلنار خلفه، لقد قص الاثنان شعرهما وقد أعجبهما الأمر، ضحكا طوال الطريق على ما فعلته جلنار بنفسها، لقد اهتم الفتى كثيرا بقصتها الجديدة، وقام بعمل مبهر، وهي أحبت مظهرها الجديد بشعرها القصير ولم تطيق صبرا حتى تلبس الثياب التي اشترتها لترى ان كان بالفعل سيليق بها وان كان سيناسب قصة شعرها الجديدة، كانت قصة ذكورية بعض الشيء ولكن نعومة شعرها وبراءة وجهها تركت الامكانية لأي أحد أن يخمن انها انثى، وبالطبع براعة الفتى في أن يظهر ذلك بدت جلية فقد استغرقه الأمر قرابة الساعتين.

هاما على وجهيهما يبحثان عن مكان لا يوجد به زحام، وسيكون حظهما جميلا ان كانت حديقة والحمامات مفتوحة، ليتسنى لهما تغيير ثيابهما، لقد تذكرت جلنار حديقة في احدى المناطق الراقية لم يكن أحد يدخلها، وكانت مرتبة ونظيفة الى ابعد الحدود وكأنها وضعت فقط للزينة، دخلتها مرة لتبيع الورد ولكن جلست هناك قرابة الساعة ولم يدخلها أحد، أمسكت بيد أخيها وحثت الخطى الى وجهتها.

_لم هذه العجلة؟ هل نسيت شيئا؟

قالها مهند محاولا مجاراة خطا جلنار المسرعة.

_لا ولكن تذكرت مكانا نستطيع أن نغير ثيابنا فيه، وسيكون رائعا ان كان على حاله منذ شهرين.

_حسننا ولكن هلا تمهلت قليلا؟ فأنا لا أستطيع مجاراة سرعتك.

خففت جلنار من سرعة خطواتها قليلا، ولكنها لا تزال تمشي بسرعة، كان الاثنان يرتديان حذائين رياضيين مستعملين بعض الشيء، ولكنهما يبدوان جديدين، كانت جلنار قد وجدتهما في القمامة لعلهما لطفلين نسياهما في قمامة المنزل، أو أنهم امتلكا أحذية جديدة ولم يعد لهما حاجة بهما، هذا ليس مهم، المهم أن جلنار ومهند كانا بحاجتهما فلطالما ذرعا شوارع دمشق حافيين.

وصلا الشارع المنشود، وبالفعل تلك هي الحديقة تبعد بضعة أمتار، ويبدو أن ظن جلنار لم يخيب فلم ترى بعد أحد في داخلها.

دخلا الى الحديقة على عجل وقصدا الحمامات.

كانت الحمامات نظيفة جدا وكأنها لم تستعمل من قبل، كسيت الجدران بالسيراميك والأرضية كذلك، لم يكن حتى منزلهم في السابق بذلك الترتيب.

_انظري أنها ناعمة أستطيع التزحلق عليها.

قال مهند ذلك وهو يتزحلق واقفا على السيراميك.

فتحت جلنار حنفية احدى المغسل كان الماء فيها قويا وصافيا كان شيء كالحلم، منذ بضعة أشهر قطع الماء عن العاصمة دمشق لمدة شهر أو أكثر، وعانت الناس شحا شديدا حتى في مياه الشرب، وارتفعت أسعار المياه المعبأة يومها الى اضعاف سعرها العادي، والان تعتقد جلنار جازمة أن المياه لم تنقطع يوما في هذه المنطقة.

_هل تريد مساعدة؟ أم أنك ستستحم وتلبس ثيابك لوحدك؟

امسكت جلنار بيد مهند وهي تسأله، وقرأ مهند في عينيها رغبتها بأن يجيبها بأنه قادر على فعل ذلك دون مساعدة:

_نعم سأستحم وحدي، ابتعدي انا لست صغير.

مشى مهند وفتح باب الحمام ودخل وأغلق الباب خلفه ونادت عليه جلنار:

_إذا كان الماء باردا لا تستحم، فنحن بغنى أن تصيبك نزلة برد.

قالتها جلنار مبتسمة وقد أحبت ردة فعله، فهي تريد منه أن يكبر بسرعة، أي سرعة تخطر في بالها، عليه أن يصبح رجلا سريعا كما نضجت هي سريعا، ولعله نضوج مبالغا به ولكنه كان ضرورة.

_اهتمي بشؤونك لا تخافي علي، هيا اذهبي وغيري ثيابك.

دخلت جلنار الحمام الاخر وأغلقت الباب خلفها، خلعت ثيابها على عجل في الحمام الضيق، وضعت ثيابها القديمة على أرضية الحمام النظيفة وجلست عليهن، وسحبت الخرطوم المتصل بالحنفية ورفعته الى رأسها وفتحت الماء، كان باردا اصابتها

قشعريرة في جسدها النحيل والذي كان في بداية بلوغه، حاولت مراقبة جسدها كيف قد تغير، ولكن كان الماء باردا لم يترك لها فرصة لذلك.

استحم الاثنان على عجل وبدئوا بارتداء ثيابهم الجديدة.

سمعا وقع خطوات في الخارج تقترب من الحمامات، وكان الصوت يرتفع رويدا رويدا حتى توقف، كان قد استقر امام الحمامات.

تملكهما الخوف وجال في بالهما أكثر من فكرة في برهة من الزمن.

_هل من أحد هنا؟

كان صوتا أنثويا فيه بعض الارتباك والخوف، لم يكن مخيفا بل كان خائفا ويحمل شيئا من الدفء في الوقت نفسه.

عاد الهدوء الى جلنار وعرفت أن هذا الصوت لا يؤذي، فردت وهي

تكمل ارتداء ثيابها، لم تدري ما تقول ولكنها فقط قالت:

_نعم؟

_اخرجا من الحمام الان لقد رأيتكم، أنتم لا تخجلون، تفعلون هذا منذ الان

كان صوتها مرتبكا ومتلعثما.

فتحت جلنار الباب وخرجت فرأت امرأة في عمر الثلاثين تقف قبالتها، كانت تنظر الى الحمام نفسه:

_دعيه يخرج واذهبا من هنا قبل أن يأتي زوجي، أستغفر الله ما هذا الجيل؟ لقد اقتربت القيامة.

فتح مهند باب الحمام من خلفها وخرج، هو لم يفهم شيئا أو ما كانت تقصده المرأة ولكن جلنار فهمت ذلك.

_سامحك الله يا خالة هذا أخي الصغير مهند.

قصت عليها جلنار القصة كلها ثم جمعت ثيابها الأخرى ووضعتها في الكيس وخرجت مع مهند، لم يتسنى لها رؤية نفسها في الثياب الجديدة مع قصة الشعر، جلست خارج الحمام وألبست أخيها حذائه وارتدت حذائها أيضا وهمت مع مهند بالرحيل.

_توقفي يا ابنتي.

اوقفها الصوت من الخلف وأحبته كثيرا، هي لم تسمع هذه الكلمة منذ سنوات، رغبت أيضا بأن يضمها أحد الآن، هي محطمة الان ومنهارة كليا من الداخل، لا يوجد سوى جسدها واقفا.

_ماذا أيضا الا يكفي ما قلته؟

قالتها متحاملة على نفسها هي لم ترغب بذلك الضعف الذي انتابها، وارادت التخلص منه سريعا.

اقتربت المرأة ووقفت قبالتها، حملت عينيها كل الأسف لما قالته والشعور بالذنب لحكمها المسبق.

كانت طويلة القامة ترتدي عباءة سوداء وحجاب خمري، وجهها حنطي ومستدير لكنه نحيل، عيناها عسليتان متعبتان وانف أكبر من اللازم وفم صغير، لم تضع احمر الشفاه فبدت شفاهها سمراء تميل الى اللون البني.

_ارجو أن تسامحيني يا ابنتي لقد أخطأت بحقكما، لم يخطر ببالي أن أحدا سيستحم بالماء البارد في حمام الحديقة.

_أنا اسامحك، الى اللقاء.

قالتها جلنار وهمت بالرحيل.

_إذا كنت بالفعل سامحتني فاقبلي أن تشربا الشاي عندي، يجب أن تحصلا على الدفء بعد هذا الحمام البارد.

لم تعلم جلنار ما الذي دفعها لقبول دعوتها، كان شيء لا اراديا في داخلها هو من استجاب لدعوتها، مشيت أمامهما ولحقا بها الى غرفتين مسبقتا الصنع في زاوية الحديقة.

_اسمي زينب وزوجي هو حارس الحديقة وقد ذهب للقيام بعمل وسيعود قريبا، نحن نعيش هنا ونتدبر امورنا منذ أن خسرنا منزلنا منذ خمسة أعوام.

تكلمت بينما كانت تخطو نحو الغرف، وكانت جلنار تصغي باهتمام بينما كان مهند مشغولا بتفسير ما يسمع.

دخلا الغرفة المتواضعة ولكن رغم ذلك كانت مرتبة وأنيقة رغم شح الإمكانيات الواضح.

_اجلسا هنا سأجهز الشاي.

قالت المرأة ذلك وذهبت الى الغرفة الأخرى.

جلس مهند وجلنار في الغرفة وتركا كيس ثيابهم المبللة خارج الغرفة، لاحظت جلنار وجود مرآة صغيرة بالقرب منها فأمسكت بها ونظرت الى نفسها، بعثت ابتسامتها الراضية الثقة في نفسها وبأن اختيارها لتلك القصة كان جميلا، وكانت الثياب مناسبة تماما لها وجميلة جدا عليها، عدلت من شعرها بأصابعها ثم أعطت المرآة لمهند، نظر أيضا الى نفسه بقليل من الاهتمام ثم أعاد المرآة الى مكانها.

سيهبط المساء قريبا ورغم أهمية موعد زيارتهما لوالديهما الا أنهما أحبا كثيرا امضاء بعض الوقت في هذا المكان، وكأن لديهما الرغبة ذاتها في تأجيل الموعد ولم يحب أحدهما تذكير الأخر رغم أن الاثنان يعلمان ذلك.

هما لا يزالان يذكران كيف منعا من لقاء والديهما المرة الماضية، وكان السبب هو الخوف عليهما مما قد يحدث، ولم تنفع توسلاتهما لعناصر الحاجز بأن يسمحوا لهم بالذهاب والعودة سريعا فهما لم يرغبا بأكثر من أن يقرئا الفاتحة على قبر والديهما.

لم أخبركم بذلك؟ لقد توفيا في السنة الثانية للحرب عندما دخل ما

يسمى الثوار منطقة في شرق دمشق وقاموا بقتل جميع الموظفين بتهمة العمالة للنظام، يومها تملكت الثوار الرحمة والعطف ولم يقتلا الطفلين، وقاموا بتركهم على قيد الحياة بجوار جثتي الأب والأم، ولحجم رحمتهم أيضا لم يدفناهما حتى لا يغيبان عن ناظر الطفلين فيشتاقوا إليهم.

نعم لقد كان الثوار رحماء الى تلك الدرجة التي جعلت جثث الوالدين تتفسخ ويبدأ العفن بأكلها، وفي اليوم العاشر لتوسلات جلنار الى السماء والبكاء والنحيب وكل ذلك الأمل الكاذب في عودتهما، قامت جلنار بسحب جثتيهما الى الحديقة الصغيرة في المنزل، وحفرت لهما قبر واحد، بحجم ما أعطتها مخالب روحها من عمق، ودفنتهما فيها، لم تضع لقبرهما شاهدة، وكان التراب تحت اظافرها هو شاهدة قبرهما، وانتظرت حتى هبط الليل وخرجت مع أخيها، مشت طوال الليل حتى استطاعت الإفلات من كل الثوار، وحتى حواجز الجيش، وذرفت آخر دموعها عندما أصيبت قدم أخيها بحجر في الأرض، وكانت تلك آخر دمعة لها، فقد أيقنت مبكرا أن التوسلات والدموع وحتى الدعاء، هو لا يغير شيئا ولا شأن لطهر الانسان أو شره للاستجابة، فقد كانت يوم دعت وتوسلت في أمس الحاجة للاستجابة، وكانت يومها أطهر من الملائكة والأنبياء والقديسين.

في الحارات القديمة لدمشق كانت ليلى ورامي يكملون طريقهم ببطء،

لا يزال في الكيس الورقي البعض من الكستناء.

_هذه المرة الأولى التي ادخل بها هذه الحارات، انظر كم هي جميلة.

كان في عينا ليلى أكثر من جمال الحارات القديمة، كانت تتأبط ذراع رامي وتمنت ان لا تفلته بعد الان.

أيضا رامي أحب ذلك كثيرا لم يرغب أحدهما بأخبار الاخر ما يشعر به، ولكنهما دون ان يرغبا فقد وقعا في الحب.

بدأت الشمس تغرب، ورن هاتف ليلى نظرت الى الشاشة ثم ردت:

_مرحبا ... بخير وانت .... نعم لن اتأخر ... حسنا الى اللقاء.

أغلقت ليلى هاتفها.

_من المتصل؟

_انها سمر واخبرتني ان لا اتأخر.

_هل ترغبين بالذهاب الان؟

_لا، أريد ان أتأخر.

بينما كانا يتحدثان ويمشيان، خرج من منزل امامهم رجالا يحملون تابوت مغطى بالعلم.

وقف رامي وليلى جانبا ومر المشيعون، كانت النساء تنثر الأرز من أسطح المنازل، أخوة وأصدقاء الشهيد في الزي العسكري يمشون خلف النعش، والكثير من الكاميرات والمصورين عند باب المنزل

تصور أم الشهيد وأبوه، كانا متعبين جدا، وقفا امام البيت خلف النعش، ووقف معهم رجال بالزي الرسمي بكروش منتفخة امامهم هنئوهم بشهادة ابنهم بكثير من الفخر، كانت اثار التعب تبدو على وجوههم، ليست حزنا، بل بسبب الطريق الذي مشوه فسياراتهم وسيارات موكبهم لم تستطيع الدخول الى الحارات القديمة.

_نعم نحن لسنا حزينون، نحن فخورون بشهادة ابننا، استشهد مدافعا عن ارضه وعرضه، لطالما أراد ان يكون شهيدا مدافعا عن الوطن.

قالها والد الشهيد وهو يصافح واحد من أصحاب الكروش والكاميرات تلتقط الصور.

توقف الجمع الذي يشيع الشهيد.

مشي الوفد مغادرا ولحقت بهم جموع الصحافيين وبقي الرجل وزوجته جالسين امام المنزل وعيونهم مليئة بالدموع، وقف الاب وزوجته ومشيا خلف النعش الذي حمله الأصدقاء والاخوة.

_يهنئني بموت ابني، وأولاده ها؟ .... لا أحد منهم موجود في الوطن ليستطيع أحد تهنئته؟

قالها الرجل باكيا ممسكا بيد زوجته التي لم تنبس ببنت شفة، لكن دموعها قالت أكثر مما استوعب رامي وليلى.

ابتعد المشيعون في الحارات القديمة وغابوا عن نظر رامي وليلى،

طرح رامي الكثير من الأسئلة على نفسه وكذلك فعلت ليلى، اكملا طريقهما صامتين، لم يعرف أحدهما ماذا يقول؟

خرجا من الحارات القديمة وزحام الحروف يعفر رأسيهما.

_تبا للوعود المسبقة، لم علينا فعل ذلك؟

قالها رامي بعد أن توقف ونظر الى ليلى.

رجفة اصابت جسد ليلى ولم تدري ماذا تقول، لعله الخوف أن تفصح عما داخلها، لعله الخوف أيضا أن تكون قد فهمت قول رامي بشكل خاطئ، ردت فعلها جعلت من رامي يتراجع او ربما يتريث.

لم تعرف ليلى انها للتو أغلقت باب الفرصة، أكمل رامي خطواته وبجانبه ليلى، ارادت ان تكسر الجليد وتحثه على الكلام، ليس مهم ماذا يقول، المهم ان يتكلم، هي ستستشف في النهاية ما تريد او يحالفها الحظ ولو لمرة ان تفهم ما يريده هو.

_هل تشتاق اليها؟

قالتها ليلى وكان جوابه سيحدد إذا ما اعطى الدافع لها وله ليكملا حديثهما، ولكن بشكل أقرب الى القلب.

_لا اعلم!

كعادته رامي لم يعطي جوابا يشفي غليل الفضول والرغبة الكامنة وراء السؤال.

صمت قليلا وأكمل:

_قد أكون مشتاق لمعرفة اخبارها وماذا حل بها بعد كل هذا الوقت؟ لكنه ليس الشوق لتكرار ما حدث، العفو عندي ثلاث وقد استنفذت خياراتها .... هل تفهمينني؟

_نعم افهمك.

هي لم تفهم لكنها لم تعلم ما الذي دفعها لتقول ذلك.

_أعتقد أنها جميلة الى حد كبير، هذا الحد الذي جعلك ترفض فكرة ان تحب مرة أخرى وان تفشل في محاولة نسيانها.

مشيا على الرصيف وقد غابت الشمس وحل الظلام.

_هل أخبرك شيئا؟

هزت ليلى رأسها بالموافقة والتقت عيناهما، لطالما أعجبها ان يتحدث من تلقاء نفسه ليس دفاعيا او جواب لسؤال.

_لقد كانت المحاولات مجرد قرار، المحاولات التي فشلت فيها ان أحب كانت بهدف مسبق، هو أن أنسى، وذلك جعلني أركز على ما يشبهها فيضعني ذلك في فخ تذكرها وفشل العلاقة، هي منذ البداية لم تكن علاقة حب، كما تعلمين الحب ليس قرار ولا خيار انه يقين، لا تعلمين أنك وقعت به قبل أن تغرقي فيه.

أراد رامي ان يعبر عما في خاطره قال كلاما كثيرا لعله نفسه لم يفهمه.

_لعل ما أحتاجه هو أن أحب لأني وقعت بالحب، أي أن أدرك ذلك متأخرا .... اوه انت لا تساعدينني!

ابتسمت ليلى وحاولت أن تعطيه الحلول لكي يقول ما يرغب بقوله دون حرج او تكلف وخوف من ردة فعلها.

_حسنا لم تخبرني، من أين تعلمت لعبة الاعتراف؟

كانت تلك اللعبة اقترحها رامي على ليلى كبديل للعبة الصراحة، تنص قوانين تلك اللعبة على أن يقول الشخص شيء يخبر به الاخر دون سؤال، اعتراف يقوله للمرة الأولى، لطالما كانت لعبة الصراحة تثير حفيظة رامي ويرى فيها أنها لعبة للكاذبين، فما الذي يدفعنا الى أن نجيب بصدق فقط أثناء اللعبة، لما لا يكون الصدق هو الشيء الطبيعي في الحياة؟ ليس شيء فريد بل هو وصف للواقع كما هو دونما تزييف.

_أنا قد تعلمتها بنفسي لأنني لا أحب أن يخبرني الشخص الاخر شيئا قد يكون اجبر على اخباري به.

صمت رامي قليلا ثم توقف ونظر في عيني ليلى، كان في عينيها شيء من التردد ولعله الخوف، لكن ذلك لم يخفي الفرح فيهما.

_هل أنت جاهزة لنلعب؟

كان ذلك السؤال ما تنتظره ليلى فقد كانت بأمس الحاجة انت تعرف ما يجول في خاطره.

_حسنا كما تشاء، ابدأ أنت!

جلسا على الرصيف، لم يشوشهما المارة او يجعلانهم يترددان في الجلوس في هذا المكان، كانت أضواء واجهات المحال التجارية بألوان مختلفة، كانت تمر سيارة بين الفينة والأخرى، توزع على جانبي الطريق محال لبيع الهدايا والالبسة والهواتف المحمولة والمطاعم.

تحول كل شيء في المكان الى اللون الأسود والأبيض، وفي الفسحة التي جلسا فيها ضللهما قوس قزح وأعطاهما لون الحياة.

تردد رامي قليلا، كان يريد أن يعترف بحبه لكنه فضل أن يكون ذلك بالتدريج خشية من ردة فعل ليلى فهي مجنونة.

_اعترف انني سعيد جدا بمعرفتك، وسعيد بك

قاطعته ليلى ضاحكة:

_اسمع انت تغش، لقد اعترفت بهذا مسبقا.

تنهد رامي وقال بلهجة متوترة:

_حسنا أعترف ان هذا اليوم هو من اسعد أيام حياتي لأنك كنت فيه، لا اعرف بماذا اعترف ولكني اريدك، ولا اريد ان يؤذيك شيئا حتى لو كنت أنا، او أن يمر عليك وقت لا تكونين به سعيدة.

ارتسمت ابتسامة على وجه ليلى، وارادت ان تكون أكثر جرأة:

_أعترف انني في كل يوم يمر عليا وأنا أتعلق بك أكثر.

_أعترف أن كل الفرح في قلبي ليس له سبب سواك، وأن مجرد التفكير في غيابك يجعلني أقف في الوسط لا اعلم ماذا افعل، حتى التنفس يصبح امر مزعج وممل.

اخذت الاعترافات منحا سريعا واراد كل منهما أن يبوح بكل شيء حتى أصبح كل منهما يقاطع باعترافه اعتراف الاخر قبل ان يكمله.

_اعترف أنك لطالما كنت في عقلي وتفكيري، ولم تغب ابدا وأنه من المستحيل أن أبتعد عنك لأنك أصبحت كل شيء بالنسبة لي، وراحتي معك وسعادتي برفقتك لا يضاهيها سعادة برفقة أي أحد اخر، انت الفرح وكل شيء حلو، أتمنى ان لا أخسرك أبدا.

_اعترف انني احبك، وان هذه الكلمة اقل من أن توفي ما اشعر به تجاهك، وأنك أجمل خيال اعيشه، وأجمل واقع اتمناه، وأنك اليقين لقلبي وسط كل الاحتمالات.

لم تقاطعه ليلى لقد كانت في عالم اخر، قد باحت عيناهما بكل الاعترافات الأخرى التي قيلت والتي لم تقل بعد.

اجتاحتهما رغبة عارمة أن يقبلا بعض، اقترب رامي برأسه الى ليلى التي اغمضت عيناها متناسيين كل الكون وكل ما يدور حولهما، لم يكونا سوى كوكبين في هذا الفضاء الشاسع، غلي الحب في عروقهما وأيقنا ان وعودهم المسبقة ما كانت سوى تفاهة.

طبع رامي قبلة هادئة على شفاه ليلى، أحس بعدها بالحياة وغابت ليلى في حلم ابيض بعيد، غابت في تفاصيله التي احتلها رامي.

_أين تظنان نفسيكما!؟ الا تخجلان!؟

فتحت ليلى عيناها على الصوت الذي قطع روعة حلمها، وقف رجل ضخم قبالتهما، حليق الذقن بشارب أسود كثيف، ارتدى بزة سوداء.

_بالفعل ان لم تستح فافعل ما تشاء!

تجمهر عدد من المارة حولهما وهما جالسين، لم تكن قبلتهما أكثر من خمسة ثواني، لم يلاحظها أحد سوى صاحب الشارب الكثيف.

انتفض رامي ووقف:

_وأنت ما شأنك بنا؟ لم لا تشغل نفسك بشيء اخر قد ينفعك؟

ارتجفت ليلى وبقيت جالسة على الرصيف والخوف يملئها.

تعارك رامي والرجل، كل منهما ضرب الاخر، صرخت عليهما ليلى أن يتوقفا وتوسلت رامي أن يتركه وشأنه وأن يذهبا.

قام المارة بإبعادهما عن بعض، ثم اخذ رامي بيد ليلى وضمها اليه

ومشيا على الرصيف، لم تستطع ليلى منع نفسها عن البكاء وأنها أخطأت كثيرا بأنها حلمت في مدينة تغتال أحلام الجميع مهما كانت بسيطة او مجانية حتى،

ضمها رامي الى صدره وهما يمشيان، لم يعرف ما يقول واكتفى بأن يربت على كتفها وشعرها.

_انا اسف لما حدث ولكني لست نادم عليه، انا احبك ولا يهمني شيء في هذا الكون سواك، تبا لهم ولأفكارهم وعاداتهم الخرقاء.

قال ذلك رامي في نفسه وتوقفت عن البكاء عندما أخبرها قلب رامي بما قاله لنفسه، حتى انها ابتسمت وشعرت بأمان لم تشعر به حتى وهي في حضن أمها.

في غرفة حارس الحديقة، نامت جلنار وأخيها مهند بالقرب من بعضهما، قامت زينب بوضع لحاف فوقهما بهدوء، وجلست بالقرب منهما تتأملهما.

كانا بريئين جدا في نومهما، غطا في نوم عميق وهادئ، ولعل الأحلام الجميلة والبيضاء راودتهما وأعطتهما تلك الابتسامة التي تبعث على الفرح، على الامل حتى لو كان مؤقتا، شيء ما في داخلهما بعث فيهما الهدوء والحب الكبير لزينب، رغم أن لقائهما لم يكن سوى منذ ساعات، لعلها الحاجة لمن يحمل أثقالهما، الرغبة في شعورهما بالأمان، أي شيء، لا أعلم ولكن من يراهما الآن يعتقد أنهما في منزلهم.

_يبدو أنهما لم يناما منذ أيام!

جاء صوت زوجها من خلفها وهو يقف على الباب، التفتت وأشارت بيدها أن يسكت حتى لا يوقظهما، ثم وقفت ومشت على رؤوس أصابعها وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب.

دخلت الغرفة الأخرى ولحق بها زوجها، بدأت بوضع فراش نومهما وجلس زوجها على كرسي بلاستيكي في زاوية الغرفة:

_هل سألتهم أن كانا يرغبان في البقاء؟

قالها بعد صمت وجيز بتردد.

_لا.

تكلمت أيضا وكان السؤال بذاته مخيفا، هي لم ترغب أيضا بإطالة الحديث والإفصاح عما تخشاه فكان جوابها سريعا.

عرف ذلك زوجها وكان كان يخشى أكثر منها هذا الموضوع، تملكه الخوف من إطالة الحديث لأنه سيوصل الى موضوعهما المعتاد.

كان زوج زينب اسمه عثمان، بلغ من العمر سن الخامسة والثلاثين، نحيل بعض الشيء، طويل القامة عريض المنكبين، جسمه يبدو عليه الشقاء، بشرته بيضاء، ومنحته ساعات العمل تحت الشمس سمارا طفيفا، طويل الذقن بشعر اسود لم يغزه الشيب بعد، وعينان سوداوان واسعتان، كان يسرح شعره الى الأعلى، حسن الهيئة.

تزوج زينب منذ ثماني سنوات، لم تجمعهما علاقة حب ولكنها كانت علاقة اعجاب، عاشا في حي واحد كان يتصف سابقا نموذج للعيش المشترك بين أناس جمعتهم الإنسانية ونسوا اختلافاتهم العرقية والطائفية لفترة طويلة من الزمن، تزوج من زينب وكان كل منهما من طائفة مختلفة، ولم يكن ذلك الأمر مستغربا قبل بداية الحرب، وبعد سنة من زواجهما بدأت الحرب وتغيرت الكثير من المفاهيم، طلب أهل زينب منه أن يطلقها كما فعل أهله وطلبوا منه ذلك أيضا، كانت الحجة الظاهرية أنهما لا يستطيعان الإنجاب، وتلك الحجة كانت سطحية جدا ليتركا بعضهما لأجلها، ليطفوا بعد رفضهما الطلاق السبب الحقيقي لرغبة أهلهما بالطلاق، ولم يكن سوى الاختلاف الطائفي.

تصور معي، يجب على زوجين أن يتطلقا، لأنه منذ ألف وأربعمئة سنة قام أحد باتهام امرأة أنها زنت، وبأن أحد الرجال كان أحق بالخلافة من رجل آخر، يتفق الجميع على أن جميع من كان في تلك الحقبة ويعنيهم الأمر جميعهم ماتوا من قبل أن نخلق نحن وأباءنا وأجدادنا الخمس عشرة السابقين، وفجأة بعد كل هذه المدة التي مرت يأتيك أحدهم ليخبرك أنك قتلت رجل منذ تلك الحقبة، وتتهمه أنت

بأنهم لوثوا شرف امرأة في تلك الحقبة، ويتهمك أنك سرقت الخلافة وتتهمه بأمور أخرى، ويتهمك بألف غيرها.

يا إله السماوات ما كل هذا الجنون؟ من أجل أناس كانوا يقتلون بعضهم من أجل تمرة!! ألم يكن الأولى بك بعد ان أخبرتنا كل شيء حتى كيفية معاشرتنا لأزواجنا، الم يكن الأولى أن تخبرنا أيضا من زنى ومن قذف ومن صدق ومن كذب وسيكذب، ومن عليه أن يكون خليفتك في هذه الأرض التي لطالما كانت عطشى للدماء، على الاقل حقنت الدماء، وكان القطيع سيرعى بكل حب وفخر بهذا الانتماء الى قطيع واحد وقوي، بدل أن يخرج الينا على شاشات التلفزة كل أولئك الرعاة في النهار، ليخبرونا أننا أمة واحدة وما يجمعنا اكثر بكثير مما يفرقنا، وعند غياب رجل المخابرات في المسجد او الحسينية او الكنيسة أو أي يكن، يحرم على الناس حتى السلام على بعضهم، وتعود تلك الخلافات ذاتها ويعود أولئك الرجال من موتهم ويعيشون فينا، يأكلون من أرواحنا، ويحللون ويحرمون ويأمرون وينهون وهم العارفون بكل أمر.

الم يكن الأولى من اخباري كيف ستحرقني بالتفصيل الممل، وكيف تلعنني الملائكة، وكيف يغريني الشيطان، وعدد حملة عرشك، وتفجير البرجين في أمريكا، وادم وحواء وقابيل وهابيل ويونس ويوسف ونوح ولوط ومحمد وفرعون وأصحاب الفيل، والقائمة تطول، الم يكن الأولى أخباري وأخبارهم كيف نكون بشرا؟ وكيف نحب بعضنا؟ وكيف نقدر الروح التي خلقتها؟ لكان أفضل بكثير أن تخبرنا بعض التفاصيل المهمة التي لحكمة عندك أخفيتها عنا.

أنا شخصيا لا يهمني، أن كان عليا هو الاحق بالخلافة أو عمر، ولا يهمني ان كان معاوية قتل الحسين او كانت فتنة رغم أنني أمقت القتل بقدر ما لديك من رحمة،

ولا يعنيني ان كان المعصومين هم الأنبياء والصالحين او الأنبياء فقط هم المعصومين، ولا يعنيني الامر ان كان الصحابة كلهم صالحين او بعضهم، ولا يهمني ان كان المهدي كما تقول السنة او يقوله الشيعة، ولا زواج المتعة ولا المسيار، ولا يهمني ان صليت في حسينية او جامع او كنس او كنيسة لجلالك، ولا أي شيء من كل تلك الترهات، ما يعنيني بالفعل ان كان من يقف امامي هو انسان جيد ويحترم الناس ويحب العدل ويحترمه، هذا فقط ما يعنيني.

يا رب أنا لا أشك بقدرتك او قوتك او حكمتك، لكن كل هذا يصيبني بالجنون، فاعذر طيشي أن كنت قد تجاوزت حدودي واستخدمت عقلي قليلا.

بكل الأحوال لم يرضخ عثمان وزينب لطلب العائلتين، حزما حقائبهما ليلا وتوجها الى دمشق ففيها عقل عادل لا يظلم عنده أحدا، اشترا منزل صغير في ريف دمشق بمال عثمان، وساعدته زينب ببيع صيغتها لإكمال ثمن المنزل، في وقتها اندلعت المعارك في الريف واختلط الحابل بالنابل، أدى بهما الخوف على حياتهما بترك المنطقة وخسارة منزلهما، وبعد بحث طويل وتشرد في غرف الآجار التي لا تصلح حتى للبهائم، وثمن الآجار المرتفع، قام أحد أصدقاء عثمان في الورشة التي يعمل بها بإرشاده الى الحديقة، وتكلم له مع رجل متنفذ استطاع أن يوظفه كحارس فيها، كانت تلك الخطوة بمثابة الانتقال من الجحيم الى الجنة والغسل والشرب من نهر الخلود كل يوم، لكن كما عودنا القدر بأن الفرح لا يكتمل، عاشا عثمان وزينب هذه المدة ولم يستطيعا أن ينجبا، ذهبا الى المشافي والأطباء المختصين ليثبت بعدها أن عثمان غير قادر على الإنجاب، عند ذلك عرض عثمان على زينب أن يطلقها فهو لا يريد أن يحرمها عاطفة الأمومة التي قد تجدها مع أي رجل آخر، لكنها

رفضت ذلك بشكل قاطع، وأنها ستعيش معه كل حياتها، ومستعدة للتخلي عن كل شيء من اجله، ويومها قالت وهي تبكي:

_من قد يرغب بالأطفال المزعجين، أنهم يبكون طوال الوقت، وأنا لا أريد أن يمضي الوقت منشغلة عنك في تربيتهم، هذا أفضل.

ضمها يومها الى صدره، وبكيا مع بعض حتى الفجر، واتفقا ان لا يتكلمان في هذا الأمر مجددا، لكن الكلام في الأمر شيء والرغبة في العيون شيء آخر مهما حاولا أن يخفيان ذلك.

انتهت من وضع الفراش في مكانه ودخل عثمان الفراش، فيما همت زينب بالخروج من الغرفة.

_ألن تنامي بجانبي؟

اوقفها صوت عثمان بشيء من الترجي.

لم تجب ولكنها وقفت في مكانها.

_ما بك؟ هل بدر مني ما يزعجك؟ هل أنت مريضة؟

نظرت زينب اليه:

_لا شيء، ولكن سأنام قرب الأطفال.

_ان كان الامر هكذا فقط فلا مشكلة!

_حسنا، تصبح على خير.

خرجت واخذت معها لحاف، وجلست بالقرب من جلنار ومهند، تحمل نظراتها كل تلك الرغبة والحب.

الساعة العاشرة مساءا، تجلس وداد على سريرها لا تدري ما تفعل، هي الى الان لم يكن لديها القدرة على التفكير بالهرب مع علي، أمها لم تترك لها الوقت طيلة اليوم، ولكنها حملت هاتفها واتصلت بعلي واختصرت مكالمتها بإخباره أنها موافقة وأن يجهز للأمر وأغلقت هاتفها، ليتصل بها بعد قليل ويخبرها أن كل شيء سيكون جاهزا وأن تقابله فجرا ليهربا من القرية، واتفقا على ذلك وأنهوا اتصالهم.

طرق باب غرفتها وفتح بعد الطرقة الثانية، كان والدها وها هو يقف بالباب، هو الآخر بدوره لم يعرف ماذا عليه أن يقول، اقترب منها وجلس بقربها على السرير.

_أعلم انكما تحبان بعضكما البعض، وأنا لا أريد ان أقف بوجه سعادتك، ولكن أنت تعلمين أكثر مني أن علي يقاتل على الجبهات، وحاله أسوأ من حال جميع من خطبك ورفضته.

صمت قليلا ثم أكمل:

_انظري الى أختك هل حالها يسر؟ انها لا تكاد تخرج من غرفتها ولا تهتم لشيء سوى حزنها الذي أكل روحها وجسدها، لا أريد أن يكون لك نفس مصيرها، هل تعتقدين أنني لا أشعر بالحزن عليها؟ أن حالها يسيئني أكثر منها.

_لقد قال لك أنه مستعد حتى للهرب من الخدمة.

قالتها وداد مقاطعة وأكملت:

_انت لا تهتم لا لسعادتي ولا حزني، كل ما يهمك في الأمر ان لا تتحمل مسؤوليتي إذا ما حدث له شيء كما حدث مع أختي وألقت بهمومها وحزنها ومسؤوليتها عليك!

لم يدري والدها ما يقول وترك لها المجال أن تتكلم أكثر.

_اطمئن! لن أعود بهمومي وحزني اليك، علي لن يحدث له شيء، سنسافر وينتهي الأمر ان كان خوفك أن يموت في الحرب.

قالتها وداد بحدة وصوت تقطعه الغصات.

_هل تعتقدين أنني سأوافق أن تقضيا عمركما مطاردين وتقاسين كل هذا الجنون معه؟

تكلم أيضا بحدة وغضب ثم زفر وهدأ قليلا وأخذ برأس وداد على كتفه.

_اقسم لك يا ابنتي لن يكون هذا الزواج سعيدا، أنا أعرف ذلك أكثر منك، ولن أضحي بسعادتك وسأحميك حتى من جنونك.

لم يكن كلامه وديا، رغم ذلك ارتاحت له وداد كثيرا، وتركت العنان لدموعها على كتف أبيها ولم ترغب أن تنتهي دموعها.

أحست بالذنب كثيرا أن تنسا كل عمرها في منزلها، وكل ما قدمه ابيها لها، وكم كانت مدللته، نسيت ذلك كله لأجل رجل أحبته، كل ذلك الخوف المتناقض بين خوفها من فقدان حبيبها وخوفها الأكبر من فقدان أهلها، شعرت بأنها مقرفة وأنانية

الى أبعد الحدود، هي لا تحلم سوى برجل كأبيها، وإذا تخلت عن ابيها الأن سيكون لديها الاستعداد للتخلي عن كل رجال الكون قاطبة وأولهم علي.

_ما الذي فعلته؟

قالت ذلك في نفسها بحقد كبير على ما اقترفت، حتى لو كان مجرد فكرة، تحول كل ذلك الى دموع اشعرتها بحرقة في عينيها.

_حسنا توقفي عن البكاء، هيا يا حبيبتي قفي واغسلي هذه الدموع وتعالي تناولي العشاء معنا، أنا لم اكل شيء منذ الظهيرة ولن آكل حتى اراك على المائدة معنا كما اعتدنا.

لقد زاد كلامه هذا من وجعها، رغم أنفاسها المتسارعة الا انها شعرت بالاختناق.

_انا اسفة يا ابي.

نظرت وداد اليه وعيناها المليئتان بالدموع تحملان كل ذلك التوسل

للصفح عما بدر منها.

ابتسم ابيها وقبل جبينها ومسح دموعها بيديه.

_لا تبكي يا حبيبتي، ولم يحصل ما يستحق الاعتذار.

مسح على شعرها ثم قال ضاحكا:

_هيا، فأنا أشعر أنني سأموت جوعا.

ضحكت وداد لضحكة ابيها محاولة خنق عبرتها، أخذ بيدها ووقفا ومشيا الى خارج الغرفة.

بعد أن غسلت وجهها جلست العائلة على المائدة، كان حريصا والدها أن يجلسها هذه المرة بقربه وأن يطعمها بيده كما اعتاد فعل ذلك في السابق، ولطالما انتقدت أمها هذا الأمر، وتخبره أن الدلال سيفسدها فهي لم تعد طفلة، ولكن لم يلقى بالا لما تقوله، ولعل خياراته عليها أن تثمر اليوم في قرارها الذي اتخذته، أو تصعب المهمة على علي قدر الإمكان.

يجلس أبو محمود مع ابنته شهيرة على مائدة العشاء في المنزل القروي، كان عشاءهما متواضعا كعددهم، لم يكن يشعر بالجوع ولم يكن لديه الرغبة في الاكل، ولكنه تناول الطعام حتى لا تحس ابنته بالوحدة التي لطالما أحست بها في هذا المنزل، منذ وفاة أمها وزواج اختها وسفر أخيها، ولعل الشهرين الماضيين التي قضتهما في منزل عمتها كانا الشهرين الاسعد منذ خطوبتها.

_الم تصل أخبار بعد عن أحمد؟

سأل أبنته وكان يعرف الجواب مسبقا، فلو كانت سمعت بأي شيء لأخبرته منذ عودته.

_لا يا أبي، لقد أخبرنا جميع من سافر بعده اذا ما علم أي شيء عنه أن يخبرنا .. آه نسيت أن أخبرك أن الاتصالات عادت بعد أن خرج التنظيم من هنا.

بقدر ما كان الخبر إيجابيا بقدر ما أحزن أبو محمود، فقد كانت حجة الاتصالات هو أكثر ما يدفعه للصبر وإيجاد العذر لعدم معرفة أخبار ابنه أحمد.

_كيف كانت هذه الفترة في بيت عمتك؟ ألم يعد خطيبك من تركيا؟

كان سؤاله مجرد هروب عما يشغله الآن، وأراد أن يفسح المجال لأبنته أن تتحدث، فالنساء لا يكفن عن الثرثرة.

_كان يتصل بعض الأحيان بعمتي ويطمئن عليها ويسلم علي أيضا، انه يعمل ساعات كثيرة والأجر زهيد، قال أنه سيعود في غضون شهر من اجل ان يكمل الغرفة التي سنتزوج فيها في منزلهم.

_تبا لتلك الغرفة، الم ينتهي بعد منها؟

قال ذلك أبو محمود مقاطعا بينما كان يصب الشاي لنفسه.

_ماذا سيفعل إذا من أجل تكاليف العرس؟ هل ينوي أن تتزوجا في سن الخمسين؟

_الظروف صعبة على الجميع وهو يعمل بقدر ما يستطيع، لا أعلم.

اجابت بشيء من الحنق والحسرة، لم تحب ما قاله أبيها رغم أنه تكلم بالحقيقة، ولكنها كانت تأمل بأن يخفف عنها.

_إذا اتصل قريبا اخبريه أن يكلمني في أمر مهم.

اثار كلام ابيها الذعر في نفسها فقد خشيت أن يوبخه ويخبره أن يفسخ الخطبة.

_هو سيتحدث غدا على ما اعتقد، ولكن يا ابي انه يقوم بكل ما يستطيع، عائلة عمتي يتحمل نصف مصروفهم، والباقي يجهز به للزواج، لا تقسو عليه.

_لن أقسو عليه، نسيت أنه أبن أختي؟ ولكن أريد أن أعرف الى متى هذا، فأنا لا أعلم أن كنت سأعيش الى الغد، لا أريد تركك هكذا دون أن أطمأن عنك.

_بعد عمر طويل، لا تقل هذا.

قالت ذلك شهيرة بخوف كبير وحقيقي.

_هذه سنة الحياة يا ابنتي، الموت يأخذ الصغير والكبير ولكل أجله، وأنا الآن في عمر يسمح لي أن أرتاح فيه.

قالها وتراجع الى الخلف عن المائدة وأخذ كأس الشاي بيده.

_لم تخبرني حتى الآن عن محمود كيف حاله؟ الم يتزوج بعد؟

أخرج الصورة من جيبه وأعطاها لشهيرة التي قبلتها على الفور بسعادة كبيرة.

_لقد أصبح رجلا بالفعل، انظر لقد اكتملت لحيته، أخبرني عما تحدثتم، وكيف هي أحواله؟

لم يشاء أبو محمود الاستمرار في الكذب، واراد ان يؤجل هذا الحديث لعل شيء ما قد يشغلها عن سؤاله في الغد.

_أنه بخير وصحة جيدة، وانا أشعر بالتعب وأريد أن أنام الان.

همت شهيرة بالوقوف:

_سأجلب فراشك الان.

_لا، اجلسي وأكملي عشاءك الان.

_لقد شبعت.

وقفت وأخذت الطعام الى المطبخ وعادت وهي تحمل فراش أبيها، وضعته في الغرفة وجلبت لحاف ورتبته، وجلبت الماء ووضعته بالقرب من رأسه.

_هل تريد شيئا آخر؟

_لا يا ابنتي، عافاك الله، لا تنسي أن تخبري خطيبك أن يكلمني.

_حسنا، تصبح على خير.

خرجت من الغرفة وذهبت لتكمل عشاءها بينما خلد ابوها للنوم.

في ليل دمشق سرقا ليلى ورامي وقت لقلبيهما، لم يرغبا أن ينتهي ذلك الوقت أبدا، نسي الاثنان كل اوجاعهما وخيم عليهما الحلم بالغد، وإعطاء الفرصة لقلوبهما في رحلة جديدة ونضوج آخر، تمنى الاثنان أن تكون هذه المرحلة هي نهاية احزانهما وأن تكون مكافأة لصبرهما وتعويضا يستحقانه عن المعاناة التي مضت.

مشيا عبر الشارع متأبطين ذراعي بعض، لم يكن مزدحما كما كان في النهار، أضواء الشوارع كانت مطفأة، بعض الاضاءات الخافتة من بعض المحال التي لم تغلق بعد تناثرت هنا وهناك وبألوان مختلفة، وحمدا ربهما انه لم يوقفهما أحد ويخبرهما بأن مشيهما فيه ريبة، وأنه يخل بالآداب العامة.

_هل تعلمين أمرا؟

_ماذا؟

_ذلك الرجل الذي تشاجرت معه، هو نفسه يتمنى أن يقبل حبيبته حيثما شاء دون أن يؤنبه المجتمع.

_لا أعلم، لعلنا كنا مخطئين في تجاهلنا للجميع.

وضع رامي يده على شفاه ليلى لتسكت:

_هل تريدين أن أفعلها ثانية؟

_هل أنت مجنون؟ الا ترى تلك الدورية؟ سننام في السجن ان فعلت ذلك، كف عن الحماقة.

ابعدت يده بتوتر وخوف، ثم أكملا مشيهما.

_أنا أحس أننا التقينا مليون مرة من قبل، وهذا الكم الهائل من شعور

الحب تجاهك لا أستطيع تفسيره الا أننا كنا في الحياة السابقة زوجين، وأحس أيضا أن هذه الكلمة، كلمة أحبك، لا تستطيع اختصار ما اشعر به، هو ليس شيئا مألوفا، ومجرد فكرة أن لقائنا قد ينتهي بعد قليل يصيبني ذلك بالخوف، ولا أريد تجربة هذا الشعور، حسنا انه شيء لا أستطيع تفسيره، أخبريني أنت ما هو؟

قال ذلك ضاحكا ولم تدري ليلى ما تقول، هي الأخرى لا تعلم كيف تفسر الأمر، وقد فسره رامي أفضل بكثير مما قد تجيب هي:

_انه الامر ذاته وقد شرحته أنت أفضل مني، تعرف شعور الجوع؟

اوقفته ونظرت اليه مستفسرة، وهز رأسه أن بلى، أكملت المشي.

_هو الشعور ذاته، أنا أشعر بالجوع لك، اه تبا أن الأمر صعب جدا، اسمع دعنا من تفسير ما نشعر به، دعنا نعيشه فقط، أن ذلك أفضل بكثير، أنا أحبك، ولو وجدت كلمات أخرى أنا اشعر بهن جميعهن تجاهك، وأكثر من ذلك بألف شعور.

رن هاتفها مقاطعا ما قد رغب رامي بقوله، ردت على الهاتف وكانت سمر هي المتصلة، أنهت المكالمة ووقفت.

_انها سمر وهي تنتظرني.

_حسنا سنذهب معا حتى اوصلك اليها وأعود.

_لا سأذهب لوحدي، أرجوك أنا بغنى عن أسألتها عن كل شيء، سآخذ سيارة أجرة وأذهب.

وقفت على طرف الطريق وأشارت بيدها لسيارة أجرة كانت تقترب رويدا رويدا، وتستطيع أن تخمن أنه عجوز بسبب قيادته البطيئة.

توقفت السيارة وفتحت ليلى الباب الخلفي، وقبل أن تصعد اوقفها صوت رامي:

_الا تخافين الذهاب بمفردك؟

نظرت اليه مبتسمة، وكل ذلك الحب على وجهها:

_أنت في هذا الكون! ما الذي قد يخيفني!؟

صعدت في السيارة وانطلقت السيارة على مهل، تركت رامي خلفها كطفل فقد أمه للتو، لكم تمنى أن تخاف فراقه كما أخافه الامر، عليه أن يعتاد هذا الألم عاجلا أم آجلا، فبكل الأحوال هي لا تستطيع أن تبقى معه طيلة الوقت، كل شيء يمنعهما من ذلك، الا ان امتلك الجرأة لتغيير أكبر مبادئه وهو الزواج في وضعه هذا، فهو لطالما طرد تلك الفكرة من رأسه، كان الأمر بسبب تجربته السابقة في الحب، تلك الفتاة التي جعلته لا يستطيع أن يفكر بالارتباط بغيرها، وهذه الفكرة لم تكن مشكلة فهو استطاع أخيرا أن يحب ليلى التي شعر تجاهها بحب لم يعهده من قبل، الأن عليه التفكير بما قد يتطلب الزواج من المسئولية الكاملة، حتى ان استطاع تحمل الأمر فراتبه لا يكفيه لاستئجار منزل صغير، أصلا لا يكفيه كمصروف شخصي لنفسه.

كل ذلك دار بمخيلته ودون أن يدري وجد نفسه في شارع مقهاه المعتاد، تذكر حينها ما دار من حديث بينه وبين جوري فتاة المقهى، نظر الى الوقت في هاتفه، كانت الساعة العاشرة والربع، عرف أنها ذهبت لكن لم يمنعه ذلك من الرغبة في التأكد من الأمر، اقترب من المقهى، لا أحد يدخله او يخرج منه لكنه لا يزال مفتوحا، وقف قبالته، وعلى الطاولة الأولى أول ما لمحه كانت جوري، كان ظهرها للطريق، راقبها قليلا والتفتت كأنها أحست بوجوده، ابتسمت له ثم وقفت ولوحت بيدها للمحاسب في الداخل بالوداع، حملت حقيبتها وخرجت، كانت قد خلعت ثياب العمل وارتدت ثياب جميلة تليق بابتسامتها التي تبعث على الفرح.

وقفت قبالته وصافحته.

_لقد ظننت أنك قد غادرتي المكان؟

_كنت أعرف أنك ستأتي، مشدوها بكل هذا الشوق.

مشيا سوية وهما يتحدثان.

_ها انت تلقين الشعر!

_نعم أحيانا يتسنى لي قراءة الشعر، ماذا عنك؟

لم تكف عن الابتسامة وهي تتحدث، وتطيل أحيانا النظر لترى تعبيرات وجه رامي بعد كل شيء تقوله.

_ماذا عني؟ حسنا، أنا أيضا أقرأ أحيانا بعض الشعر، وأحيانا بعض الروايات او شيء من هذا القبيل، ملء فراغ على الأرجح.

_نعم جميل ملء فراغنا برأس أحد غيرنا، والعيش بعيدا عن كل ما نعرف، انه هروب أكثر مما هو فراغ.

_هروب؟ أكثر الروايات المشهورة لكتاب مشهورين كانت تتحدث عن وجع شعر به الجميع لأنهم أحسو أنه كتب عنهم، أي هروب هذا؟

كانت بداية مشجعة للكلام في أمر يهتم به الاثنان، ورامي من الأشخاص الذي قد ينسى كل شيء عندما يتم حديث كهذا عن الروايات والشعر، فهي أمور تسمح بالغوص أكثر في العقل.

_نعم هروب، لأن الكثيرين أيضا أحبوها لأنها تحمل بعض الفرح، او بعض مما أحبوا أن يحيوه، على سبيل المثال أنت لماذا تكتب؟

كان السؤال بمثابة لكمة وجهت الى رامي، فهو يعرف أنه يكتب ليجعل الواقع أفضل، لمنح الحياة أكثر، لتغيير الأحداث كما يحب وليس كما هي.

_ها لم تجبني؟

قالت ذلك بابتسامة المنتصر ولم يحب رامي الأمر، رغم أنه لطالما أحب أن تكون المرأة صاحبة رأي وأفكار وأن تكون قوية وحالمة، لكنه لم يحب أن يخسر هذا النقاش، وسيستخدم أسلوبه المعتاد في تشتيت المحاور، فهو كثيرا ما ربح النقاش لأنه كان يستطيع اثبات ان فكرة ما صحيحة، وأن عكسها أيضا صحيح،

_أنا أكتب لكي يرى الأنسان وجهه الحقيقي الذي لطالما أخفاه عن الجميع، الحب على سبيل المثال، أنت لو لم يمس الأمر شيء مما أحسست به لما سألتني عنه في المقهى.

قال ذلك مبتسما أيضا، فهو يعرف أنه سجل للتو نقطة أو انتصار ساحق.

_ما تشعرين به ليس بالضرورة أن يكون هو ذاته ما يشعر به الآخرين، قد نشبه بعض في كثير من الأمور، لكن هذه الأمور العميقة تختلف في كل شخص كاختلاف بصمات الأصابع.

تكلم وهو يشير بيديه متفاعلا ليضفي المصداقية أكثر لما يقوله.

_حسنا قد يكون الأمر كذلك، لا أعرف، يبدو أن احساسي خاطئ.

اكملا سيرهما وتبادلا الأحاديث والأفكار.

فتاة كهذه برأي رامي لا تستطيع أن تملها، وهذه الأمور قد يتحدثا بها طوال الوقت، دون أن يشعر أحدهما بمرور الوقت.

قد تكون كلها مجرد ثرثرة، ولكنها ثرثرة لا تعنيها الحدود، وليست موضوعة ضمن إطار واحد او تحكمها القوانين، فالعقل لا يخضع لشيء في أفكاره، ولا يلتزم بحدود ما تراه العين، هو يأخذك الى أكثر من ذلك، يغوص في تفاصيل دقيقة قد تكون مبهجة وقد تكون محزنة ومؤلمة، لذلك أصر كثيرا على استخدام العقل، على الأقل هو مجاني من الناحية المادية.

في حي قريب ترجلت ليلى من سيارة الأجرة والتقت بسمر ولا يزال حبيبها معها، ولعنت الأمر في داخلها، ما دامت لا تزال مع حبيبها لماذا استعجلتها في المجيء وحرمتها من تلك اللحظات السعيدة مع رامي؟

القت التحية عليهما، وعرفتها سمر على حبيبها ومشوا جميعا باتجاه منزل سمر، استمرت سمر وحبيبها بقول النكات السخيفة والضحك بسبب ومن دون سبب، هربت ليلى من ذلك الحديث الى مخيلتها التي جمعتها برامي لترتسم على وجهها الابتسامة، كانت في عالم آخر لم يكن سوى جسدها يحث خطاه على الطريق، كان كيانها كله يطير في الهواء مع رامي، يشعلان القمر تارة ويعدان النجوم تارة أخرى ويفترشان السحاب في لحظات مجنونة.

الحب لا يخضع للقوانين كما الخيال والفكرة.

مشى الثلاثة ببطء في الشوارع، فتارة ينعطفون وأخرى يعودون كمن يدور ضمن حلقة، لم تنتبه ليلى للأمر لأنها كانت في مكان آخر

في نفس الوقت كان رامي وجوري يمشيان مقتربين من المنطقة ذاتها، ولا يزالان يغرقان في الأحاديث التي بدت أنها لن تنتهي.

_أي يوم أو موقف اعتقدت أنه الأصعب في حياتك؟

ارادت جوري الغوص في رامي والمعرفة أكثر عنه، انه كأي كتاب جديد قد تقرأه، وهي تحب المعرفة.

_انها كثيرة، لعل أصعبها كان في السجن العسكري.

ضاحكا تكلم رامي كمن يهون على نفسه الأمر، هو لم يعرف حتى الآن ما الذي تريده جوري منه، على الرغم من انها مفعمة بالفرح والأحاديث المشوقة الا انه كان يجهلها، يجهل قلبها، ويبدو أن ليلى احتلت كلما يتعلق بأمور العاطفة لديه، لذلك أراد أن يبقي جوري بعيدة عن هذا الأمر، فقد اعتاد الوقوف في الوسط وهو يفكر أن يأخذ عهد على نفسه ان لا يكلم أي فتاة غير ليلى ما أن تنتهي هذه الليلة.

لم تتوقع جوري أن يكون رامي قد دخل سجن، هو لا يبدو عليه ذلك، انه هادئ جدا وعقلاني.

_هل كان السبب إيمانك بالحرية؟

ممازحة ألقت سؤالها، اعتاد الجميع إطلاق النكات والممازحة في الأمر، لأن فكرة الحرية أصبحت أمر مثير للسخرية، بعدما حل بالبلد ما حل به.

_من منا لا يؤمن بالحرية؟ لكن الأيمان بفكرة ما شيء، وتطبيقها شيء آخر كليا، بكل الأحوال لم تكن فكرة الحرية هي السبب، انه أمر آخر لا أرغب بالحديث

عنه، أما عن فكرتي تجاه الحرية، فأنا لا أرى أن الحرية تطبق عند العقلاء، ان قمة الحرية نجدها فقط في مشفى المجانين، فكل ما هو مستهجن خارج اسوار المشفى هو أمر شائع ضمن اسواره، البكاء وتقمص الشخصيات والنباح والنقد والسياسة والكفر والأيمان والضرب والعض وكل تلك الأمور، انها قمة الحرية بالفعل، علينا أن نحسد أولئك المقيمين داخل ذلك السور.

ضحك بعد أن قال ذلك، لا أعلم أين المضحك بالأمر، بل أنه امر موجع الى حد بعيد.

ضحكت جوري أيضا على الفكرة ولم تعقب بشيء.

_انت لم تتحدثي عن نفسك.

_حسنا، سأتكلم باختصار، انا كما تعلم اسمي جوري وعمري ثلاثة وعشرون عاما، بعد أن انهيت دراستي الثانوية توفي والدي ... سقط عن الدور الرابع اثناء تنظيف منور.

قالت ذلك دون أن ترغب في قوله، فقد كان الأمر مؤلم لها الى حد بعيد، ارتياحها لرامي دفعها لأن تلقي بحملها قليلا عليه ولو بشكل مؤقت، على أحدهم أن يحمل جانبا من الوجع معها.

_رحمه الله! أنا أسف لم أقصد أن أذكرك بأمر قد يجرحك.

_لا عليك، أنت لم تسألني عنه بل أنا من تحدثت.

زفرت وتنهدت، ورسمت ابتسامة مصطنعة على وجهها لتوحي لرامي أن الأمر لم يؤثر فيها كثيرا كما يعتقد.

ــ لم يبقى في المنزل سواي مع امي، فأنا وحيدتهما، كان على أحدنا أن يعمل، وأمي كبيرة في العمر لا تستطيع العمل، بحثت كثيرا عن وظيفة على شهادة الثانوية ولكن لم يحالفني الحظ، مرت علينا شهور أحيانا لا نجد ما نأكله، كنا نساعد الجيران في الولائم التي يقيمونها ونوضب الخضرة لبعض المحلات التي كانوا يعرفون أبي، كان الأجر زهيدا، وكانت أمي ترفض أن أعمل في البيوت أو أن أعمل في مقهى، لكن بعد ان ساء حالنا أكثر استطاعت صديقتي أن تقنعها أن أعمل في المقهى، صحيح كان العمل متعبا وقد تتعرض الفتاة لمواقف غير محبذة كالتحرش اللفظي، وأحيانا يصل الأمر الى أن يعرض أحدهم علي أن أقضي معه ليلة مقابل المال، لكن في النهاية لم يكن الأمر يعجب مالك المقهى والعاملين فيه، تحدث بعض الأحيان شجارات مع تلك النوعية ويتم تجاهلها في أحيان أخرى، بالنهاية لا أحد يستطيع اجبار أحد على فعل شيء لا يرغبه.

توقفت جوري عن الحديث عندما اقتربا من شاب وفتاة يقفان على الرصيف، لم يكونا سوى حبيب سمر وليلى يقفان سوية، ويبدو أن سمر دخلت الحديقة القريبة لقضاء حاجة، كانا يتكلمان ويضحكان، ولم يصدق رامي الأمر، ليلى أيضا لم تصدق عينيها عندما رأت رامي مع جوري، لم تكن سوى لحظات التقت عيناهما، كان الأمر أشبه بالصدمة، لم يسأل أحدهما الآخر عمن معه، ولم يرغب أحدهم بتبرير الأمر فلم يرى أحد منهما أنه مخطئ، بل حمل كل منهما نظرة الخيانة للطرف الآخر، وعلى الرغم أن الصدمة كبيرة، ولكن تعامل الأثنان بردة فعل باردة،

فتجربتيهما السابقة هدت كل ما تبقى فيهم من ثقة، كانا مصدعين جدا من الداخل، ذلك الموقف أدى بهما الى الانهيار الداخلي الكامل، فبعد أن رأى الاثنان في بعضهما تعويض عن كل ما فات، تنتهي تلك النظرة بعد ساعات قليلة من انعاش قلبيهما، يبدو أن الأثنان فقدا كل شيء ووصلا الى تلك المرحلة من الكآبة، التي لم تجعلهما حتى أن يلقيا بالا للأمر، ولم يجعلانه يستحق السؤال حتى، فهما العارفين ببعضهما الى أبعد الحدود، اكتشفا للتو انهم لا يعرفون حتى أنفسهم، كلنا نفعل ذلك عندما نوقن أننا على حق ولم نفعل شيء خاطئ، ذلك يجعلنا نرى أخطاء الآخرين فقط، كان الأولى بهما أن يمنحا بعضهم القليل من الإجابات، أو على الأقل أن يطرحوا الأسئلة، الأمر ليس صعبا الى هذا الحد.

لا أعلم كيف أصف لكم الأمر وكيف فهم كل منهما ما حدث، لكنه كان شيء غبيا، نعم غبي الى ابعد الحدود.

رسم الأثنان على وجههما ابتسامة الخيبة تلك عندما التقت عيناهما، أكمل رامي طريقه مع جوري دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات الى الخلف، ليلى أيضا لم تنظر اليه بعد أن تخطاها، ارتفع صوتها بالضحك على نكتة سخيفة أخرى، كان عليها فعل ذلك لم تعرف لماذا قامت بذلك، حتى أن حبيب سمر استغرب الأمر، لقد كانت تضحك على خيبة أملها وعلى اعتقادها الخاطئ.

_هل رأيت؟ أن الحب يمنح السعادة، اسمع كيف يضحكان.

قالت جوري ذلك وتمنت أن تعيش تلك اللحظات التي يعيشانها وذلك الضحك الهستيري مع من تحب.

_نعم بالفعل ..!

حاول رامي مجاراتها هذه المرة وعدم تخييب ظنها، ولعله أحب أن يصدق الأمر ويجد من يؤيد فكرته.

_حسنا أكملي.... لا أحد يستطيع أجبار أحد على فعل أمر لا يريده.

_أحسنت، لديك ذاكرة قوية.

لم يعرف رامي ان كانت تلك نقطة قوة فيه أم انها نقطة ضعف، فلطالما تذكر تفاصيل كثيرة كلها مؤلمة، لقد تمنى دوما أن يتوصل العلم الى إيجاد عقار أو اختراع يجعل الذاكرة انتقائية للأمور، لاختار وقتها الاحتفاظ فقط بذكرياته التي يحبها، والتي تحمل الفرح والسعادة، ولكن ان تم ذلك الأمر، كيف يمكن للإنسان أن يتعلم؟ فجل معرفة الانسان هي من اخطائه واوجاعه.

_ما أكسبه في المقهى كان كافيا، ونحمد الله اننا نملك منزل على الرغم انه صغير وقد يسقط فوقنا في أي وقت، ولكنه يحمل عنا عبئ ثمن استئجار منزل، انا أحب أن أقرأ، فكل شهر أو أقل علي أن أقرأ شيء جديد.

_وماذا تقرئين هذا الشهر؟

_أنت...

قالتها على عجل وقد فسرها رامي ألف تفسير قبل أن تكمل:

_ما الذي تقرأه أنت؟

كانت تكذب، لم يكن هذا جوابها، بل كان الأول، كانت تحاول قراءة رامي، لكنه غريب الأطوار وأشبه برواية مجنونة وضبابية.

_أنا لا أقرأ حاليا، أنا أكتب رواية.

_هل أنت جاد؟

_نعم، انها محاولة لكتابة شيء، أو كالعادة ملء فراغ.

_يا إلهي! أنا الآن سعيدة، لقد تعرفت على كاتب روائي، ستهديني نسخة اليس كذلك؟ وتكتب الاهداء بخط اليد؟

ضحك رامي وأعجبه الجنون والطاقة في جوري.

دخلت ليلى وسمر الى غرفة سمر، غيرتا ثيابهما وانسلت ليلى سريعا الى فراشها، ارادت الهروب من كل شيء، فالنوم جنة التعساء.

_هل أنت متعبة؟ هذا ليس وقت النوم! سأحضر المته ونستمع الى البرنامج لا تنامي.

عدلت سمر من شعرها وجمعته فوق رأسها وقالت ذلك وخرجت مسرعة من الغرفة.

أغمضت ليلى عيناها وتمنت ان لا تستيقظ، أو أقله ان لا يوقظ رامي ذاكرتها المزدحمة بالخيبات، لقد تمنت أن يعوضها الله به عن كل ما فات ولكنه لم يكن سوى خيبة جديدة وسريعة، أحست بأن قلبها كان رخيص الى درجة كبيرة، وأنها

فقدت الرؤية، هي لطالما رأت فيه الكمال رغم أن لا شيء كامل، لقد أوهمها بذلك فهو لم يكن الا نسخة من هؤلاء الذكور.

لا شيء يستحق، لم تلتقيه الا أمس واليوم، لكن لما كل هذا الألم في أيسر صدرها، لم يكن الأمر منطقي أبدا، عليها أن تكرهه فقط لتشعر بالراحة، كيف له أن يحدثها طوال ساعات كم يحبها وما أن تتركه تجده مع فتاة أخرى؟ نعم هذه هي الفكرة التي ستترك لها المجال الى أن تكرهه، انه خائن وفظيع وكاذب كبير، رسمت تلك الفكرة في عقلها مسحت دموعها، وكان ذلك مرضيا الى حد ما ليجعلها تنام هذه الليلة، ولكنها لن تنسى كل تلك الفترة الجميلة التي جمعتهما فيها الصداقة.

أغمضت عيناها ودعت الى ربها أن ينسيها إياه وينسيها تلك الخيبة الجديدة التي ستترك لها الخوف فقط من كل شيء، وعدم الثقة بأي أحد بعد أن هدم رامي آخر جدرانها، ولعنت قلبها الهش ألف مرة

كيف استطاع ان يسبب لها كل هذا الألم؟

هي نفسها ترى أن شعورها مبالغ به، لم تكن حتى علاقة، انها يومان فحسب، اما قبلها فلم تكن سوى الصداقة.

ما الذي حدث لليلى؟

ليلى كانت ترى في رامي أنه رجل مثالي الى ابعد حد، وهو لا يقول شيء لا يقصده، ولم يكذب عليها يوم بأمر ما، هي أحبته منذ تلك الفترة التي كانا بها صديقين، بعد خيبة حب حصلت معها اثبتت لها أن الثقة في الناس كارثة، ومشت على ذلك المبدأ، قررت من يومها ان لا تحب أحدا أو تتقرب من أحد أكثر من

اللازم، الى أن تعرفت على رامي فغير كل تلك المفاهيم فيها، وأثبت لها أنه مختلف رغم أنه كان طوال الوقت يخبرها أنه قد يكون أسوأ من الجميع، ولعل تلك الشفافية التي كان بها جعلتها تتعلق به وتثق به، وعندما اعترفا لبعضهما بالحب ايقنت ان الله عوضها بما تستحق عن الخيبة الماضية، ورسمت أحلام كثيرة لهما معا، وان حياتها لن تكون الا جنة معه، لم يمهلها القدر، ما شأن القدر؟ لم يمهلها رامي سوى اقل من نصف ساعة ليتداعى كل ما بنته في طرفة عين.

_هيا استيقظي وأخبريني، كيف كان لقاؤك مع رامي؟

دخلت سمر وهي تنادي على ليلى.

_ليس بالمهم، كلهم ذكور، انهم كالقردة ينتظرون ابتسامة أي فتاة ليثبتوا أنهم قادرون على المضاجعة، أريد أن أنام أنا مرهقة.

احترمت سمر رغبتها وسهرت وحدها رغم أنها حاولت أن تفهم ما الذي حدث؟ فقد كانت سعيدة جدا عندما عادت من لقاء رامي.

أوصل رامي جوري الى باب منزلها ولم يشعر كيف مر الوقت، اوقفته على الباب ودخلت بسرعة وخرجت تحمل كتاب، أعطته إياه.

_هذه هدية لك، أقرأها وإذا التقينا في الغد سأسمع رأيك، وإن تأخرت سأراك المرة المقبلة وتحمل روايتك هدية لي، وعليها اهداء لا تنسى ذلك.

_حسنا، أنا أقدر هذا كثيرا، فأجمل هدية لا نستطيع بيعها هي الكتاب، الى اللقاء.

قال رامي ذلك مبتسما وهم بالرحيل، أمسكت جوري بيده وقالت:

_هل أنت مجنون!؟ أعطني رقم هاتفك.

أخرجت هاتفها وأعطته إياه وسجل لها الرقم واعاده، وارادت أن تتأكد أنه لم يخدعها فاتصلت به الى أن رن هاتفه في جيبه ثم أنهت الاتصال.

_عليك أن تحفظه حتى لا تسألني، من أنت؟

قالت القسم الأخير من جملتها وهي تقلد صوت رامي.

ضحك رامي على ذلك:

_لن أنسى سأقوم بحفظه.

مشى مغادرا ولحقت به، قبلته على شفاهه في لحظة مجنونة.

_هل جننت؟

كان رد رامي قاسيا، فقد ابعدها بوضع يديه على كتفيها.

_لا! أنا في قمة العقل!!

صمتت قليلا ولم تعرف ما تقول، ثم أكملت بخجل وخيبة:

_حسنا أنا اسفة لقد تجاوزت حدودي، لكني لم أستطيع منع نفسي من فعل ذلك، بكل الأحوال شكرا لأنك أوصلتني...الى اللقاء.

مشت جوري الى باب منزلها، كان الممر الضيق مضاء بضوء خافت، لم يعلم رامي مصدره فقد كانت الكهرباء مقطوعة في الحي.

أحس بالندم على زجرها، هو لم يعرف لماذا فعل ذلك.

_جوري؟

نادى عليها قبل أن تغلق الباب خلفها، وقفت عند سماعه ونظرت اليه بعيني متسولة للحب.

اقترب منها على مهل يخطو نحوها، لم تكن المسافة بينهما كبيرة، كانت ثلاث أو أربع خطوات الى أن وصل اليها.

_حسنا انا اسف لم اقصد أن ازعجك، ولكن لا اعلم كيف اشرح الأمر.

قال ذلك بارتباك شديد وتردد، وكان صوته مرتعشا وأنفاسه تعلو

وتلفح رقبة جوري التي لم تكن تريد اعتذارا بالكلمات، وقد قرأ رامي ذلك في عينيها، فلم يدري بنفسه الا وهو يضمها الى صدره ويقبلها قبلة طويلة من شفاهها، اعتصرا بعضهما حتى ضاعت تفاصيلهما، كانت قبلة عفوية لم يخطط رامي لها، ولعل جوري ذاتها لم تتوقع ذلك، لكن تجاوبا مع بعض كعشاق خطط قلبيهما للأمر كله.

اشتغل الضوء في الممر الضيق، جفل الأثنان وانتهت قبلتهما، ضحكا الأثنان بصوت خافت على جفلهما.

_لقد جاءت مبكرا هذه الليلة، بالعادة لا تأتي قبل الواحدة ليلا، اذهب قبل أن تخرج أمي.

قالت جوري ذلك وهي تمسح حمرة شفاهها بيدها.

_حسنا، الى اللقاء.

خرج رامي، وأغلقت جوري الباب.

مشى رامي عبر الحي على عجل، عليه الآن أن يأخذ سيارة أجرة لتوصله، سيكون حظه كبيرا ان وجد احدى السيارات بعد خروجه من الحي، فقد أصبح الوقت منتصف الليل، ولم يخبر ابن عمه انه سيتأخر الى هذا الحد.

أتصل به ابن عمه بينما كان يفكر في ذلك، اغلق الاتصال وأرسل له رسالة يخبره فيها أنه على الطريق.

لم يفكر حتى الأن بما رأى من ليلى، ولعله أراد تجاهل الأمر كليا وأن يشغل باله بأي شيء آخر، فما أحسه تجاهها في تلك اللحظة التي رآها فيها مع الشاب احتاج الى عشرة عقول لتحمله، وهو بغنى الآن على أن يفكر بها، وهو يعلم جيدا أنه لن ينام الليلة الا بمعجزة،

فمهما حاول تجاهل التفكير بالأمر، لن يستطيع ذلك، انها ليلى ببساطة، هي وحدها قادرة على التسبب له بكل ذلك الأذى، كما انها تستطيع ان تمنحه كمية هائلة من الفرح والسعادة، تستطيع كسره بطرفة عين، ولديها القدرة على ترميمه بابتسامة.

أنا أيضا أرى أن الأمر مبالغا به، ولكن ذلك ما كان بالفعل، صدق أو لا تصدق.

عاد رامي الى منزل ابن عمه، وهو على الأغلب سيغادر في الغد الى وحدته التي يخدم بها في محافظة قريبة.

كان الجميع في المنزل نيام عدا ابن عمه.

جلس مع ابن عمه كثير الكلام، الا أن الأمر لم يزعجه هذه المرة، لقد أحب أن يتحدث عن أي شيء، وجاراه في الحديث، ولم يرغب أبدا أن يتوقف عن الكلام، كان هروب آخر وطرد لليلى من عقله لوقت أطول.

تكلما عن الكون ونشأته وعن الالحاد وعن الايمان والشياطين والسياسيين والتجار وكل شيء، ولم يدريا بأنفسهم إلا أن غط رامي في النوم، وعرف ابن عمه ذلك عندما طال صمته، جلب له لحاف ووضعه عند قدميه وذهب هو أيضا للنوم.

لعلي الآن قد فهمت لم يلجئ الناس الى الثرثرة التي لا تقدم ولا تأخر ولا تغير أي شيء في الأمر، لم تكن سوى نوع آخر من الهروب، تفاديا للصفعات المتكررة والتي تعايش الجميع معها، كان علينا جميعا أن نرد منذ البداية دون حسابات، فإن لم ترد من الصفعة الأولى ستصفع مرة أخرى وتتوالى الصفعات وتدمن الأمر، انه الاعتياد يا صديقي، لا تعتقد أنك مسالم، انت ضعيف فقط مثلنا جميعا

تمارس دمشق الآن طقس موتها المؤقت، رغم انه لا يزال في جعبة أبنائها الكثير ليحيوه، لكنها اختارت أن ينتهي هذا اليوم أسرع، لعلها كانت رأفة بليلى ورامي ومثلهم الكثيرين الذين يجدون ملاذا آمنا لأرواحهم في النوم، ولعل رامي وليلى كانت مشكلتهما هي الأهون بين الجميع، فعلى أم أن تريح عقلها من وجع ذكريات

ابنها الشهيد، ولعل ذلك كان من أقسى الأوجاع، أقسى من اليتم والترمل وآلاف القصص الموجعة التي عاشتها وتعيشها دمشق منذ سنوات.

الثالثة فجرا في غرفة علي، كان يوظب حقيبته ويضع ثيابه فيها، وكان حريصا أن يكون هادئا وألا يثير جلبة تستدعي استيقاظ والديه، سيعرفون الأمر في الصباح، عندها سيكون في مدينة أخرى وحياة أخرى مليئة بالحب مع وداد، داعبت الأحلام مخيلته، وارتسمت على شفاهه ابتسامة سعادة جعلت من الأمور اللاحقة والمشاكل التي ستبدأ منذ طلوع شمس هذا اليوم هينة وبسيطة، هو مستعد لكل شيء الآن ما دامت وداد الى جانبه،

ارتدى ثياب أنيقة حرص دوما على تركها في خزانته للمناسبات المهمة، ووضع عطره، حمل حقيبته وخرج على مهل من الغرفة، وحث خطاه ببطء عبر الحوش خارجا من المنزل، مشى عبر الطريق المتعرج باتجاه منزل وداد القريب.

كان قمر تلك الليلة قد شارف على الغروب، فأعطى بهاء لمنازل القرية المتناثرة هنا وهناك، موتى الليل أحياء النهار في برزخهم الآن، وعلى وداد أن تكون جاهزة للحلم.

وقف قرب الصخرة أمام منزلها وارتأى أن يترك لها المجال ويتفاجأ بصوتها، جلس على صخرة صغيرة وأشعل سيجارته تاركا المجال لمخيلته، كيف ستقترب منه وداد بعد قليل تحمل كل ذلك الحب والسعادة؟ فهما لم يعودا بحاجة شيء عداهما، ولن يسمحوا لهذه المدينة أن تقتل حبهما كما فعلت بالكثيرين، هما الآن يملكان الخيار وهما سيختاران أما أن يعيش حبهما أو أن يسمحا بقتله.

نفث الدخان من فمه وأعاد مضغ سيجارته بنهم، راقب القمر يغادر السماء رويدا رويدا، وكيف سرقه أحد الجبال العالية.

اشتدت حلكة الليل ما أن سرق القمر، لم تكن أضواء القرية مشعلة.

لقد سمعوا الكثير من الوعود أطلقتها الحكومة بعد أن تم استعادة حقول للنفط والغاز، بأن الجميع سينعم بساعات كهرباء أطول وستخفض ساعات التقنين، ولكن حتى الآن لم تكن سوى وعود كاذبة لم تلمع صورة الحكومة بل زادت من نقمة الشعب وازدياد في قلة الثقة بينهم وبين المواطنين، ولكن من يجرؤ على قول شيء، لطالما كان التلفزيون الحكومي ينقل المقابلات مع المواطنين والذين كانوا يكتفون بالتمجيد والدعاء للحكومة بالتوفيق، والجملة التي كانت دائما على لسانهم (الحمد لله وهدأ الله البال وأعان الحكومة)

لطالما تمنيت أن يسألونني أمام كاميراتهم عن رأيي بالحكومة وعملها وهذه الأمور التي يسألونها عادة، وأعتقد جازما أن المقابلة لن تبث، وسأستدعى لأحد الأفرع الأمنية لتهمة ما حتى أنا لا أعرفها وسأعترف بها، لذلك اسمع مني وقل الحمد لله وأعان الله الحكومة فنحن شعب مرفه الى أبعد الحدود ولا يعجبنا العجب، كل هدفنا في الحياة هو أن ننتقد ونغض الطرف عن كل ما هو إيجابي، وننظر فقط للسلبيات، لا تسألني ما هو الإيجابي لأنه موجود حتى ان لم تكن تراه، وكما قال الشاعر نزار قباني (نمدح كالضفادع ونشتم كالضفادع)

هل فهمت يا صديقي؟ حسنا.

أطفئ علي سيجارته العاشرة، وبدأت خيوط الضوء تنسج في الأفق، لقد تأخرت وداد، الساعة الآن الرابعة والنصف فجرا، أقلقه الأمر، حمل هاتفه واتصل بوداد، رن الهاتف طويلا ولم تجب.

_هل من المعقول أنها نائمة؟

سأل نفسه وبدأت الأفكار تزاحم مخيلته أحالت ابتسامته الى عبوس، أتصل مرة أخرى، كان سينتهي الوقت ولكن قبل ذلك أنهت وداد

المكالمة، بعث ذلك الطمأنينة في نفسه.

_حسنا انها قادمة.

سمع علي صوت باب منزلها يفتح بهدوء، نظر اليها، لم تكن تحمل أي حقيبة، ولم ترتدي ما يدل على أنها هيأت نفسها للسفر.

اقتربت منه على مهل مرتدية ثياب النوم، حملت ملامح وجهها زرقة الفجر والكثير من الحزن.

_هل جننت؟ ألم تجهزي نفسك بعد؟

قال ذلك علي وعيناه تحملان ألف سؤال وألف خوف، رجفة أصابت قلبه وغاب الدم عن وجهه، عليها أن تقول شيء وأن تنقذه من محاولات التخمين.

وقفت قبالته ودموعها في عينيها تزاحمان لمعة الحزن:

_انا لا أستطيع فعل ذلك.

قالت وداد ذلك وانتقصت غصتها بعض الحروف.

_ماذا؟ أنت تمزحين أليس كذلك!؟ أرجوك أخبريني أن هذا الأمر ليس حقيقيا!

تكلم متوترا ومنفعلا غير مصدق ما سمع.

_هل تقصدين أنك لم تهيئي نفسك للأمر؟ ليست بالمشكلة، سنؤجل ذلك الى الغد!

لم تجب وداد بشيء وكان صمت يقتل آخر ما تبقى من انتظار علي، لم يكن لديها ما تقوله.

_اللعنة! قولي أي شيء.

قالها بغضب ممسكا بكتفي وداد وهزها بعنف.

_علي، لا تظن أن الأمر سهلا علي، انه يقتلني، أنا أحبك هذا الأمر لن يتغير ولكن...

قالت كلماتها وتركت المجال لالتقاط أنفاسها بين كل جملة وأخرى.

_لكن ماذا؟ تكلمي!

صرخ علي بنفاذ صبر.

_لن أهرب من بيت أهلي، لن أخونهم مهما كنت أحبك.

كان جوابها هو الجواب الذي حاول علي طرده من رأسه، لم يعرف بعدها ماذا سيقول، كان الأمر موجعا الى ابعد الحدود، ليس أقل من انتزاع قلبه من صدره.

_لقد أخبرتني أنك، ما الذي تقولينه؟ أنت لن تخوني أهلك ولكن أنا،

قال ذلك متلعثما ضائعا كافرا بكل شيء.

_لا تصعب الأمر علي، هل تعتقد أن هذا سهلا بالنسبة لي؟

اشاحا بنظرهما عن بعضهما، وداد غارقة بالدموع، وعلي غارقا بالجنون والشتات، مشت وداد الى المنزل كمن يمشي على زجاج محطم، في كل خطوة ماتت ألف مرة، حمل علي حقيبته ومضى هائما مسرعا لا يعرف الى أين تقوده خطواته، ليت بإمكانه البكاء والنحيب، لعل ذلك كان ليطفئ النيران المشتعلة في قلبه.

الساعة الرابعة والنصف صباحا في منزل أبو محمود.

يخيم سكون الأموات على المنزل الذي اعتاد سكانه النهوض قبل أن تلقي الشمس خيوطها على الأرض، لعله فقدان الرغبة في الاستمرار، لعل الموت راقهم، فراش الراحة ولقاء الحلم مع أناس لم يعودوا قريبين كانت جائزة أبو محمود الذي استلذ النوم ورسمت على وجهه ابتسامة غادرته منذ زمن بعيد.

كان حلما صافيا وأبيضا جمعه بزوجته، جلسا سويتا تحت شجرة الزيزفون العبقة برائحة الفرح، أطالا النظر في بعضهما، عاتبها على تركه وحيدا وعاجزا، وعاتبته على غيابه وتأخره عنها، رغم كل العتب الا ان الروح كانت تغلفها الجنة، والوجوه تحتلها الابتسامة، كيف لعتاب أن يكون بكل هذا الجمال؟ وكيف له أن يحمل كل تلك السعادة النقية؟ كيف لعتاب أن تستلذه وتتمنى ان لا ينقطع؟ أن يستمر فحسب.

أنياب الحقيقة هشمت الحلم.

استيقظ أبو محمود على صوت ابنته، فتح عيناه للحظة، لكم تمنى أن يصاب بالعمى لكي تكون الصورة الأخيرة التي رآها هي ما جمعته مع زوجته، الصوت الذي أصبح في أذنه صوت ابنته متزامنا مع طرق على باب المنزل.

_لم تشرق الشمس، والباب يطرق.

كمن يشعر بالذنب قالتها، بصوت يحمل الأسف، فقد راعها منظر الدمعة التي بللت لحيته الشائبة، لم تراه مرة في مثل هذا الموقف ولم تتمنى أن تراه يوما بهذا الحال.

حبست غصتها وخرجت من الغرفة على عجل.

طرقت الحقيقة متثاقلتا نافذة العقل تخبره بوجودها.

اتكأ على يده الخدرة، وصوت الطرق على الباب كان يدق في قلبه وعقله، موجعا ملامح الحلم في ذاكرته، تمنى أن تقوم الساعة قبل أن يقف، فقد كانت ذاكرته أنانية، وما أن وقف كان قد نسي الحلم، لم يتذكر منه الا أنه من المحتمل قد رأى زوجته في الحلم.

مشى على مهل على وجعه عبر الحوش، توجه الى البوابة الحديدية وهو يسأل نفسه.

_ من قد يطرق الباب في هذا الوقت المبكر؟

فتح الباب ولم يصدق عينيه، قام بفرك عينيه، تبا لهذا الضباب فيهما، لم يرغب أن تكون خدعة أخرى.

لم تسعفه الكلمات فأحتضن ابنه أحمد باكيا، ضمه حتى أوجعا بعضيهما.

_تبا للغياب.

بصوت قلب غلفته غيمة الوجع ممزوجا باللحظة والفرح.

دخل محتضنا أبنه بكل ذلك الخوف من الغربة، غربة الابن، غربة الروح، غربة الذكريات الموجعة.

_يا شهيرة!

نادى على ابنته، بنبضات قلب متسارعة وصوت مرتجف:

_لقد عاد أحمد.

حتى الابن لم يجد ما يقوله، كان يبكي ضاما والده.

كان نحيلا بشكل لا يصدق، متعب العينين، لحيته لم تشذب منذ فترة طويلة، الجلد على عضم وجنتيه رسم ملامحهما، ثيابه الرثة والمتسخة لم تغسل منذ فترة طويلة.

خرجت شهيرة من الباب، توقفت غير مصدقة ما ترى، انهارت باكيتا وركضت اليهما، احتضنتهما سويا، وقفت اللحظة في الحوش، دموع تحمل عتابا قاسيا، وفرح يحمل الشكر لاستجابة الصلوات.

_منذ متى لم تستحم؟

قالتها شهيرة ضاحكة والدموع في عينيها.

ضحك الثلاثة على الأمر ساخرون من الغياب.

ذهب أحمد واستحم بينما حضرت شهيرة طعام الإفطار، وجلسوا في الحوش على سجادة صوف قديمة بهتت ألوانها مع مرور الوقت، نصف الشمس قد ظهر يحمل ما تبقى من نصفها الآخر ببطء.

لبس أحمد ثوب من ثياب أبيه، كان واسعا جدا على جسده الهزيل، تناولوا فطورهم وتكلموا كثيرا.

_لقد شغلت بالنا كثيرا أين كنت؟

معاتبا ومحبا طرح الأب سؤاله.

_ما ان خرجت من تركيا حتى أوقفت في اليونان، لقد اتهموني بأنني إرهابي، أخبرتهم كثيرا انني لست كذلك، لا اعرف ماذا أخبرهم المترجم، عرضوا علي صورا لشخص يشبهني، ورطن المحقق بحدة وغضب، نظرت الى المترجم، لم يقل سوى انت إرهابي وهذه صورك وانت تقاتل في العراق، وما زاد من شكوكهم وجود المصحف الصغير في حقيبتي، اودعوني في السجن ولم أخرج الا منذ أسبوع، لقد كان الأمر مجرد شبه بيني وبين شخص آخر القوا القبض عليه بين المهاجرين، كان يريد الذهاب الى المانيا.

_هل قاموا بتعذيبك؟

تكلم الاب بصوت حزين ومهتم.

_انت بغنى عن أن أخبرك ما الذي واجهته في السجن، ولكن أحمد الله انني استطعت الخروج.

_الحمد لله على سلامتك يا بني.

هز أبو محمود رأسه بشيء من الرضا.

_بالتأكيد أنت لم تنم منذ ساعات طويلة؟

قالتها شهيرة ممازحة.

_هذا صحيح، أرجوك قومي بتجهيز فراشي فأنا أرغب أن أنام أكثر من اهل الكهف.

مشت شهيرة الى الداخل على عجل.

_هل انت بخير؟ هل تريد أن تتزوج؟

قالها أبو محمود وقد أمسك يد احمد بقوة.

_أنا بخير يا أبي، وما أريده الآن أن أنام، لا أريد شيئا أكثر من ذلك.

_حسنا يا بني، نام الآن وسنتحدث بكل الأمور عندما تستيقظ.

وقف أبو محمود وحمل عكازه وخرج من المنزل على عجل، عليه أن يحمل الخبر السعيد لزوجته كما كان يفعل دوما بإخبارها كل شيء، كانت الأخبار السابقة جميعها تعيسة، الآن هو يحمل خبر مفرح من حقها أن تعرفه وتشاركه فرحته.

لقد رحلت منذ ثلاث سنوات، واضب فيها أبو محمود على زيارتها كل يوم ونقل الأخبار لها، كل أخبار القرية، من تزوج ومن أنجب من زرع ومن حصد من طلق ومن احترق محصوله، كل الأمور كان يخبرها بها، ولعل خبر اليوم هو الأسعد لقلبها ولقلبه.

هي قد رحلت وهذا أمر لا شك فيه، ولكن من يقنع أبو محمود بعكس ذلك، هو لم يصدق الأمر حتى اليوم، ولا يرغب بتصديقه، حتى بدأ البعض بالتكلم والهمس بأنه قد أصيب بالجنون، هم لم يعرفوا الوفاء كما عرفه، يختبئون خلف ابتساماتهم، يختبئون خلف الوجع حتى لا يتهمهم أحد بالهشاشة، فالرجال لا يليق بهم الضعف والبكاء والحنين، فيستمر الجميع بارتداء الأقنعة الى أن يتوفاهم نومهم الأبدي، لكنهم من الداخل يلعنون كل الأوجاع التي يشعرون بها، والتي تثقلهم بالجنون الحقيقي بينهم وبين أنفسهم، كم من الصعب أن تكون في عين الجميع لا مبالي وقوي، وأن تكون في عين نفسك ضعيف ومهشم الى ابعد الحدود.

فتحت جلنار عينيها على مهل، دخلت زينب من باب الغرفة تحمل طعام الإفطار، وضعته على الأرض، وقفت مبتسمة وغادرت الغرفة بخطى سريعة.

نظرت جلنار في الغرفة الى الجدران والسقف والسجادة المفروشة على الأرض، لا يزال اخيها الصغير ينام بالقرب منها، وضعت يدها على كتفه وهزته برفق.

_مهند هيا استيقظ.

فتح مهند عينيه، لم يشعرا بالراحة الا هذه الليلة، لقد ناما طويلا ونسيا كل الأوجاع التي ستصادفهم اليوم كما اعتادوا في الأيام السابقة.

دخلت زينب تحمل الشاي

_صباح الخير، الفطور جاهز، قوما واغسلا ايديكما وهذه الوجوه الجميلة وتعالا لنتناول الطعام.

وضعت الشاي بجانب الطعام وجلست، وبدأت بوضع السكر في كاسات الشاي، أخذت جلنار بيد أخيها ومشت الى المغسلة، غسلت يديها ووجهها ونظرت في المرآة على المغسلة، راقها شكلها وأحبته ولن ترغب بتغييره بعد اليوم، قامت بمساعدة أخيها بغسل وجهه ويديه وعادا الى الغرفة، كانت زينب قد صبت الشاي.

_هيا اجلسا، لقد نمتما كثيرا هذه الليلة.

جلست جلنار ومهند وقربت زينب الشاي لهما وبدء الثلاثة بتناول طعام الفطور.

_لقد نسيت، أين زوجك الن يتناول الفطور معنا؟

_لقد استيقظ مبكرا وتناول افطاره وشذب بعض العشب في الحديقة وذهب الى عمل آخر.

تناولوا فطورهم وخرج مهند من الغرفة وذهب ليلعب في الحديقة، بينما ساعدت جلنار زينب بأخذ الصحون الى المطبخ الصغير، وقفت زينب على مغسلة المطبخ تغسل الصحون بينما وقفت جلنار في جانبها، يدور في عقلها سؤال لا تستطيع تأجيله، ترددت في طرحها السؤال وبدا ذلك على وجهها

_ما بك؟ تريدين أن تقولي شيئا؟

_حسنا لا أعرف ماذا أقول، ولكن لماذا تفعلين ذلك معنا؟ أنت لا تعرفين من نحن حتى!

نظرت زينب اليها وأغلقت الصنبور:

_هل مساعدة طفلين تحتاج الى معرفتهما؟

_هناك آلاف الأطفال في الشوارع لم تساعدي أحد منهم.

قالت جلنار ذلك بارتباك، كانت ترغب أن يكون الأمر مميزا.

_أنا لم أخرج من هنا منذ أن انتقلنا الى الحديقة، كيف عساي أن أرى أطفالا، ولنفرض أنني رأيت هؤلاء الأطفال كلهم، كيف عساي أن أساعد الجميع؟

_حسنا، لا أعرف كيف علي أن أشكرك.

قالت جلنار ذلك بشيء من الخيبة، وقاطعتها زينب قبل أن تكمل:

_لا تشكريني، أنا علي أن أشكركما لأنكما منحتماني ليلة من الفرح، وأنا أشكر الله أنه منحني هذه الفرصة.

_علينا أن نغادر الآن ونكمل عملنا.

_جلنار، هل لديكم مكانا تنامان فيه غير الحديقة؟ او أي أقارب تلجئون إليهم وقت الحاجة؟

تكلمت زينب وعيناها تحملان التوسل بأن تبقى جلنار وأخيها عندها تربيهما كأولاد لها.

هزت جلنار رأسها بالنفي.

_ليس عليكما الذهاب، سأكون في قمة سعادتي ان قبلتما البقاء هنا وسمحتما لي بالاعتناء بكما، اقسم لن أحرمكما من شيء أو أمنع عنكما شيء.

_ولكن أنت وزوجك لستما مجبران على تحمل هذا العبء، ونحن اعتدنا الأمر، لن يكون هنالك فرق بالنسبة الينا.

لم ترغب جلنار أن يعاملها أحد من باب الشفقة.

_لقد طلب عثمان مني أن أطلب منكما البقاء، هذا ليس لأجلكما بقدر ما هو لأجلنا.

كان ما قالته زينب مرضيا نوعا ما لجلنار.

خنقتها غصة البكاء، سكتت قليلا ثم جلست على أرض المطبخ وقالت بحزن:

_نحن لا نستطيع أن ننجب، فعلنا كل شيء لأجل أن يتم الأمر.

وقفت جلنار على نافذة المطبخ تراقب كيف يلعب أخيها بسعادة وفرح كبيرين.

_نحن لسنا أولادكما!

بقدر ما أوجعها حال زينب، وبقدر ما أحبتها منذ رؤيتها، لكنها لم ترغب أن تكون مع أخيها أبناء لأحد سوى والديهما الحقيقيين الذين لن تنساهما ابدا.

_لا أطلب منكما أن تشعرا نحونا بأننا والديكما، ابقيا هنا فقط، ان لم يعجبكما الأمر لن نمنعكما من المغادرة.

وقفت زينب ومسحت على رأس جلنار بحنو.

رغبت جلنار بذلك لأجل أخيها أكثر من أي شيء آخر، هي بكل الأحوال تستطيع أن تعتمد على نفسها، ولكن أخيها لا يزال صغيرا، لن يضيرها الأمر ان جربت، ثم أنها شعرت بشيء تجاه زينب، لعلها الرغبة بالتوقف عن كونها يتيمة ووحيدة.

_انظري اليه، انه سعيد وعليه أن يكمل دراسته وأنت أيضا.

اشارت بيدها الى مهند وراقبتاه وهو يلعب على أرجوحة الحديقة، لم تقل جلنار شيء، وأرادت بعض الوقت، خرجت ومشت الى مهند بينما اكتفت زينب بمراقبتها وهي تخطو نحوه، ودعت ربها ان يحقق أمنيتها ببقاء جلنار ومهند عندها.

وصلت جلنار الى مهند وبدأت تهز المرجوحة، كانا يضحكان بجنون، نظرت زينب اليهما مطولا، رسمت ابتسامتها الحلم والامل بتحقيقه، وسيكون لها ما ارادت ما أن ينتهي مهند وجلنار من اللعب.

لم تستطع ليلى الانتظار أكثر، ولم ترغب بالوظيفة حتى لو نالتها، لم تكمل الأمر، استيقظت في الصباح وجمعت حاجياتها في حقيبتها، ألحت عليها سمر بالبقاء لتناول الإفطار لكنها لم ترغب بشيء أكثر من العودة الى منزلها، لتكمل عزلتها في غرفتها، ربما سترسم بعض الرسوم، وربما تنام وربما ستبكي أو ستستمع الى قصص أمها الكثيرة والتي لطالما تهربت ليلى منها لتتحدث مع رامي أطول فترة ممكنة، تبا لرامي، لقد سرق معظم أوقاتها، كان عليها أن تعي ذلك مسبقا، خرجت من منزل صديقتها واتجهت الى مركز انطلاق الحافلات الى مدينتها، استقلت اول حافلة منطلقة الى هناك وجلست في المقعد، امسكت بهاتفها تسلت قليلا، لم يصل شيئا من رامي بعد وهذا أعطاها راحة أكبر، فهو يعرف أنه مذنب، ما عساه أن يقول، تمنت أن لا يحدثها أبدا، هذا يجعل الأمر أسهل بكثير.

جلست بجانبها امرأة يبدو أنها في الخمسين من عمرها، تبادلت الأحاديث مع ليلى، هي الأخرى لم تحب الكلام الكثير يوما، ولكن عليها الآن أن تغير كل شيء، وأن تملء وقتها بالأشياء التي تجاهلتها دوما، وضعت هاتفها في حقيبتها وجارت المرأة في الكلام، بكل الأحوال لن يكون وقتا طويلا.

خرجت الحافلة من دمشق وزادت من سرعتها.

دمشق مرة أخرى تترك في ليلى قصة موجعة وخيبة أمل أخرى، خيبة أكبر، انها ملعونة فيها ببساطة، لن تعود مرة أخرى اليها مهما كانت الأسباب، هذه المدينة لا تليق بها، وحظ ليلى لا يليق بها، نعم لن تعود، عليها إذا ما ارادت البقاء فيها أن تتعلم أسلوب آخر للحياة لا تعرفه ولا يشبهها بشيء، لا لن ترتدي قناع، ستبقى على ما هي عليه، تبا للجميع لن تتغير، من أراد أن يبقى فليبقى، ومن أراد

الرحيل جميع الطرق سالكة، لن تسمح لشيء بأن يوجعها بعد اليوم، بالأحرى لن يستطيع الوجع أن يجد طريقا اليها.

في الحافلة تذكرت حديث رامي عندما أخبرته أنها ترغب في الموت، رد يومها عليها، لم يقل كما يقول الناس عادتا، أخبرها أن الأمر لا يزال مبكرا، فلكل إنسان نصيب من الوجع والخيبات، ولن يموت قبل أن يأخذها كلها، لعلها ضحكت ذلك اليوم على فكرته، ولكنها الآن تعيها جيدا، وتظن أنها بالفعل مستعدة للموت فقد أخذت حصتها الكاملة من الوجع والخيبات.

استمر حديثها مع المرأة التي سألتها عن أشياء كثيرة، دراستها وإن كانت مخطوبة أو متزوجة وعن عائلتها، ووصل بها الأمر الى طلب عنوان منزلها، أجابتها ليلى عن كل أسئلتها لعل ذلك يساعد على الوصول بسرعة ويجعلها تنسى بعض الأمور التي تحتل تفكيرها لقليل من الوقت، استمر حديثهما بشكل ودي ويبدو أن المرأة تعيش في حي قريب من الحي الذي تعيش فيه ليلى.

_ان ابني أكبر منك بثلاث سنوات، هو وحيدي ولديه محل لصيانة الهواتف المحمولة قبالة مدرسة .....

عرفت ليلى المحل، وعرفت الشاب الذي تتحدث عنه، انه قبالة مدرستها الثانوية.

_هل تعرفينه؟

_نعم لعلي أعرفه، حفظه الله لك يا خالة، انه شاب خلوق.

تذكرت ليلى ذلك الشاب بالفعل، كان شابا خلوق ووسيم.

_سلمك الله يا ابنتي، علينا أن نزوجه الان، لقد أصبح في السادسة

والعشرين من عمره، تزوجن أخواته ولم يبقى غيره في المنزل معي.

_الفتيات كثر يا خالة، وبالتأكيد ستجدين له فتاة مناسبة، أتمنى له التوفيق فهو يستحق الخير.

لم تفهم ليلى لم تخبرها بهذا الشيء الخاص، لعلها أيضا تريد أن يمضي الوقت وتصل بسرعة.

استمر حديثهما أكثر حتى وصلت الحافلة الى مدينتهما، كان الموقف قريبا من منزل ليلى، فرأت من الواجب دعوتها لشرب الشاي والتعرف بأمها، لم تمانع المرأة الأمر بل أحبت ذلك.

رحبت والدة ليلى بهذه المرأة، وللصدفة انهما كانتا تعرفان بعضهما.

غيرت ليلى ثيابها وذهبت لتحضير الشاي، بينما تبادلت أمها مع المرأة الأحاديث الكثيرة، واستمرت المرأة بالثناء على أخلاق ليلى والاستمرار في مدحها بشكل مبالغ به.

كانت المفاجئة عندما طلبت المرأة يد ليلى لابنها، فهي لم تلتقيها من قبل، ولعل معرفتها بأمها شجعها على الأمر.

لطالما ارادت والدة ليلى أن تزوج ابنتها، على الرغم من انها متعلمة وموظفة ومثقفة، لكن كانت العقلية ذاتها التي يحملها المجتمع بأكمله والرغبة في تزويج ابنتها، فهي تخاف عليها كثيرا وتريد أن تطمئن عليها في وقت مبكر، ولكن رغبتها واجهت

دوما الرفض من ليلى، لم ترغب ليلى بهذه الزيجات التقليدية وكانت تحلم كجل البنات في عمرها بأن تتزوج شخصا تحبه، ولطالما أنهت النقاش في هذه الأمور قبل أن تبدأ أمها الحديث فيها.

وعدتها خيرا وحمسها للأمر أن الشاب وحيد ويملك عملا خاصا به،

ولن تقبل الأعذار من ليلى هذه المرة، فشاب كهذا فرصة نادرة ولا يمكن أن يرفض، أقل الأمور هو لن يتم سوقه لخدمة العلم ولن تخشى على مصير ابنتها، وتجزم أنها ستكون سعيدة.

سكتن عن الموضوع عندما دخلت ليلى تحمل الشاي التي لطالما أرادت من يخدمها، ولعل أمها قرأت في الأمر أنها تعرف لم هذه المرأة هنا.

جلسن سوية وشربن الشاي وتبادلن الأحاديث العابرة لنصف ساعة، ثم غادرت المرأة بعد أن وعدتها أم ليلى بأنها سترد على طلبها بعد أن تعرف رأي ابنتها في الموضوع.

دخلت ليلى غرفتها وبدأت بالرسم كعادتها، لم يساعدها عقلها على رسم شيء محدد، كانت مجرد خربشة لا أكثر.

دخلت أمها الى الغرفة وجلست معها، حدثتها عن الأمور الاعتيادية وسألتها عن المسابقة، ثم أعادت عليها حديثها بأنها تريد أن تزوجها وعلها أن تهتم بنفسها أكثر وتتعلم كيفية تدبير امورها في المنزل، ولم يكن الحديث غريبا على ليلى، بل انه أسطوانة مكررة اعتادت سماعها، لكن هذه المرة كان في ردها شيء من اللين وعدم

الرغبة في أن تناقش الأمر أكثر، ترددت أمها كثيرا أن تخبرها بطلب المرأة ولكنه أمر لا مفر منه:

_تلك المرأة أم زياد! هل تعرفين لما كانت هنا؟

_لقد دعوتها لشرب الشاي ووافقت، لما عساها أن تكون هنا؟

_لو تعلمين ماذا طلبت مني لما كنت دعوتيها.

قالت ذلك ضاحكة.

_ما الذي طلبته منك؟

تكلمت ليلى نوعا من المسايرة لتدع لأمها المجال أن تتحدث، فأخوها يطيل اللعب على هاتفه، وإذا حدثته سيكون في عالم آخر ولن ترى منه سوى هز رأسه كدمية الكلب الذي يوضع في السيارات، وهي أيضا رغبت بأن تملء وقتها بأي شيء يشغلها عن التفكير.

_لقد خطبتك لابنها زياد.

ظنت ليلى أن أمها تسخر منها وتمازحها فما كان منها الا أن تكمل اللعبة، لا بأس فسيطول الأمر قليلا.

_حسنا وماذا قلتي لها؟

_لقد أخبرتها أنني سوف أسألك وبعد أن أعرف ردك سأعلمها بالرد.

ضحكت ليلى باستخفاف:

_ماذا أيضا؟

ردت فعلها الباردة دفعت أمها للاستغراب:

_لم تنفجري كعادتك عندما أخبرك بأمر الخطبة!

_أمي اسمعي، أنا أحبك، ولكن هل تعتقدين أنني غبية لأصدق ما قلتيه، هذه المرأة كانت بمقعدي في الحافلة وتكلمنا طوال الطريق، رأيت أنه من غير المعقول ان لا أدعوها لشرب الشاي، لقد كانت معي، كان عليك أن تختاري شخصية أخرى لتخدعيني بها.

_انت لا تصدقينني ها؟ أقسم أن الأمر كذلك، وهي تنتظر الرد.

لقد أقسمت، هي لا تكذب او تخدعها، دار ذلك في عقل ليلى، وكان

ردها غريب بعض الشيء بالنسبة لأمها.

_أنت ما رأيك؟

_هل تعبثين بي مجددا؟

تكلمت أمها بنبرة حادة.

_لا أبدا أنا أسألك عن رأيك بشكل جدي، أنت تعرفينهم أكثر مني.

بعث ذلك ارتياح في نفس أمها رغم أنها استغربت كثيرا ردة فعلها، فهذه ليست عادتها في الإجابة عن أمور الخطبة.

_حسنا يا ابنتي، أنت تعرفين أني أريد أن أطمئن عليك وأن تتزوجي وأفرح بك، وهذه العائلة من أفضل العائلات في المنطقة، ثم أن الشاب وحيد ووسيم أيضا ويعمل، سيصلح لك هاتفك ان تعطل، وأمه أيضا طيبة القلب ولن تعاني معها.

_حسنا أنا موافقة.

كان جوابها سريعا مقاطعا لحديث أمها، بعث في أمها المفاجئة لم تكن تصدق الأمر، واعتقدت مجددا أنها تسخر منها:

_هل أنت جادة؟

صمتت ليلى قليلا وأيقنت أن قصص الحب موجودة في القصص فقط.

_ان كنت موافقة أنت وأخي أنا موافقة أيضا، أنا متعبة وأريد أن أنام.

فرحت أمها كثيرا لردها، قبلتها على جبينها وخرجت، استلقت في سريرها وأغمضت عينيها، لم ترغب أن تفكر في الأمر، كانت

الموافقة أسهل بكثير من التفكير بالأمر.

لم تدرك أنها وافقت ردة فعل على ما رأته من رامي ليس إلا، وانه مجرد هروب أو طرد لرامي من عقلها وقلبها، هي في النهاية ستتزوج من رجل آخر، فهي لن ترضى أن تتزوج خائنا على الأقل، الأن ستتزوج شابا ذو أخلاق، وبالتأكيد ستحبه بعد الزواج، أنه وسيم ونحيل، ليس كرامي البدين ثقيل الحركة والذي يظن أنه يعرف كل شيء، انها تكرهه، لا تريده ولا تريد أن تحدثه مرة أخرى.

_مختلف؟ هه ليس مختلفا سوى بالأسلوب.

قالت ذلك لنفسها وندمت بشدة على تلك القبلة الخاطفة والمشاعر التي أحسها قلبها تجاهه، لو تكرر الأمر لن تفعل ذلك أبدا، هي الآن لا ترغب بشيء سوى النوم، وستنسى رامي بسرعة ستجبر نفسها على ذلك، هي الآن بائسة ومثيرة للشفقة.

ضلت تدور تلك الأمور في رأسها الى أن نامت نوما عميقا، ولا بأس ببعض الكوابيس التي ستهاجمها، لقد اعتادت الأمر في كل أطوارها.

استيقظ رامي ضهرا على صوت ابن عمه يصرخ على اخته الصغيرة، قام بغسل وجهه، لم يسرح شعره أو ينظف اسنانه كما اعتاد، سلم على العائلة ليغادر، طلبوا منه البقاء أكثر لكنه لم يرغب بذلك وأخبرهم أنه قد يتعرض للعقوبة ان تأخر أكثر وأنه سيزورهم كلما سنحت له الفرصة.

نزل الدرج على مهل، لحق به ابن عمه وسأله ان كان يحتاج المال أو يحتاج شيئا رغم معرفته السابقة أنه لا يحب أن يسأله أحد في تلك الأمور.

_قلب.

قال رامي بعدم مبالاة وابتسامة صفراء.

_قلب ماذا؟

ضحك رامي وأكمل طريقه نزولا على الدرج بينما عاد ابن عمه الى الشقة، لطالما قال رامي كلاما غريبا بالنسبة له، انه غريب الأطوار فحسب.

حث خطاه في الشارع، ان موقف الحافلات بعيدا نوعا ما واعتاد ان يوقف سيارة أجرة للذهاب اليه فهو لا يعرف الكثير في دمشق ولطالما كانت خياراته تتجه للأسهل، لكنه هذه المرة أراد أن يذهب مشيا على الاقدام، أراد فرصة أكبر ينظر فيها الى صور المشردين، شيء يستطيع الترويح عنه أن هنالك أناس تعاني سواه، ولعله يرى وجه مألوف لطالما رغب أن يلتقيه، هو يعرف جيدا أن ذلك لن يحدث، ولكن قد تحدث معجزة قادرة أن تلعن المسافة والغياب وأن تحظرها الى هنا لأي سبب كان، لعل زوجها يصاب بالجلطة ولن يستطيعوا معالجته شرق سوريا ويأتوا الى دمشق كي يعالجوه، أو أمها مثلا، أي سبب كان، ليمت الجميع ما همه من ذلك، هو فقط يرغب في رؤيتها مرة أخرى فحسب، لن يتحدث ولن يقول شيئا، فقط يرى كيف غيرت منها السنين التي مرت؟ هل لا تزال جميلة أم أن الزواج سرق روحها وألوانها التي تعج بالحياة؟ هل لا تزال عيناها العشبيتان كعادتهما، واسعتين، نجمان خضراوان في سماء وجهها، هل أتعبها الوقت كما أتعبه؟ هل تشتاق اليه كما

يشتاق لها ويفتقدها كمن يفتقد النبض في أيسر صدره؟ وعلى الرغم من أنه موقن أن ذلك لن يحدث، وأن الرب لن يجعل الأمر بهذه السهولة، الا أنه بحث في جميع الوجوه عنها، عن أي شيء في الملامح يشبهها، تشبه الجميع لكن لا أحد يشبهها، حاضرة فيه، غائبة عنه، لعنته الأبدية التي لم يستطع التخلص منها.

_رأيت فيك كل العابرين، ولم أراك في أحد منهم، لست تأتي، ولست تغيب، كأنك لعنة حلت بي.

دب الناس في الشوارع، كعادتهم لكل منهم ما يغنيه عن النظر الى اللافتات ووجوه المارة، لم يكن الجميع خاويا كرامي، ولكم يشعر أحيانا بسخف ما يؤلمه تجاه كل ما يسمعه وكل ما يراه.

رن هاتفه بينما كان يمشي لكنه لم يجيب.

_ماذا عنك؟ الا ترى هؤلاء الناس؟

سأل نفسه السؤال محاولا أن يجد لنفسه العذر، لكنه أيقن هو أيضا أنه يبحث عن أي هروب ينقذه من صفة الفرح، ويضعه على خانة

الوجع والبؤس، كلنا أشقياء، أحب أن يصدق ذلك ولكن هيهات،

يال سخافة ما يشعر به أمام كل تلك الأوجاع وكل ذلك البؤس الذي يعيشه الناس، طقس يومي لا ينتهي، وجع يحمل وجع وينزف وجع

لقد شعر أنه يبالغ في كل شيء، والأمور أسهل بكثير بالنسبة له، هو على الأقل عازب، لا يحمل مسئولية عائلة أو أطفال، ليس مطلوب منه أن يكون سعيدا، لكن على الأقل عليه أن يطرد هذا الوجوم من وجهه.

وصل مركز انطلاق الحافلات جلس على حجر على الطرف وأشعل سيجارته كان المركز كالمستنقع ولا تزال المياه تتجمع فيه لعل هذه المياه موجودة منذ أن أمطرت الدنيا آخر مرة منذ شهر لم يكن مستعجلا ولم يكن يرغب في التأخر تمنى أن يتوقف الوقت فحسب

رن هاتفه مقاطعا أفكاره، كانت جوري هي المتصل رد على الهاتف:

_أهلا جوري.

صمت قليلا، كان يراقب طفلا يلعب بالقرب من الحافلة.

_لا، أنا أسمعك.

سألته جوري ان كان يرغب أن يرافقها الليلة وان كان قد قرأ شيء من الكتاب، أخبرها أنه في طريقه الى الثكنة ولم يتسنى له بعد أن يقرأ شيئا من الكتاب، أخبرها أنه سيتصل بها لاحقا وأغلق الهاتف على عجل.

كان بالفعل غريب الأطوار، فبقدر رغبته في الحديث معها الا أنه أنهى الاتصال دون سبب.

وقف وقطع تذكرة من أحد المكاتب وصعد في الحافلة، لن يطول الأمر، ستنطلق الرحلة بعد خمس دقائق، وضع حقيبة حاسوبه المحمول في الأعلى وجلس، تمنى ان لا يصعد بجانبه أحد لأنه لا يرغب في أن يكلم أحد ولو كانت كلمة واحدة.

كان حظه جيدا، لقد انطلقت الحافلة دون أن يجلس أحد بجانبه، راقب الناس الجالسين في المقاعد الأخرى، لفت نظره في المقعد الأول، رجل في الأربعين من العمر، وبجانبه فتاة رغم صغر سنها الا أنها تبدو كزوجته، كانت فيما يقارب الثالثة والعشرين، تحمل طفلا في عمر السنتين، كان واجما عكرا يبدو أنهما سيتعاركان، لعلها ناقشته في أمر لم يروقه، ارتفع صوت الاثنان فما كان من المرأة الا ان تركت مقعدها ومشت الى مؤخرة الحافلة حيث يجلس رامي، لم يكن من مقعد فارغ سوى المقعد بجانبه، استأذنته بالجلوس ورحب بالأمر، انكفأ يتصفح في هاتفه بينما بربرت المرأة بكلام لم يفهم، أو لعل رامي لم يرغب أن يفهمه، سيكون الطريق طويلا مع هذه الثرثرة.

_حسنا اليك الأمر، إذا كنت ستستمرين بالكلام سأغير مقعدي، أفسحي لي المجال كي أن أخرج.

قالها رامي بعد نفاذ صبر ويبدو أن المرأة لن تسكت.

_حسنا أنا اسفة، لن أتكلم مرة أخرى، فبالطبع جميعكم تشبهون بعض، ويضيركم أن تسمعوا صفاتكم الحقيقية.

نعم يبدوا أنها لن تصمت.

_تزوجت هذا الرجل بعد أن استشهد زوجي منذ سنة، رفضت الأمر في البداية فهو أخو زوجي، ولكن أهله وأهلي أصروا على الأمر كونه سيهتم بالطفل كما لو كان والده، لا أستطيع تحمل العيش معه بعد الآن، انه بخيل ومقيت ومقرف، نعم لن أكمل الأمر وابني سأربيه بنفسي، لن يكون الأمر أصعب مما هو عليه الآن.

تكلمت بحزن عميق وهي تداعب طفلها وتعدل قبعة الصوف على رأسه، كانت قبعة بالية بعض الشيء.

_حسنا هوني عليك، لعلكم ستصلون الى حل ما أن تصلا البيت، فكري بالأمر لأجل طفلك على الأقل.

قال رامي ذلك لينهي الكلام ولكن هيهات، استمرت بالحديث مطولا ولم تصمت الى أن وصل رامي ثكنته التي تقع على الطريق العام بين دمشق والسويداء، ترجل من الحافلة ومشى يلعن كل شيء، كانت تلك المرأة صداع لا ينتهي، أراد أن يشعل سيجارة وكانت الريح قوية، لم يستطع أن يفعل ذلك ليزيد الشتائم على كل شيء في طريقه، انه على يقين أن تلك المرأة كانت على حق فيما قالته، ولعل الأمر كان موجعا جدا بالنسبة له مما جعله يكره كل شيء.

كان عليه أن يشتري قداحة أفضل من هذه، الآن سيمشي لمدة ربع ساعة الى أن يصل غرفته ليستطيع اشعال السيجارة.

فكر في ذلك ليطرد الصداع من رأسه، صداع الحقيقة وألم الاستماع، جاحدون نحن لكل الأوجاع التي لم نتعلم منها شيئا، وجاحدون أيضا لكل ما تعلمناه ولم نستفد منه بشيء.

وصل غرفته وغير ثيابه واستلقى في سريره ونسي أمر السيجارة، غط في النوم هاربا الى الحلم، لعل الذاكرة لا تزال تحتفظ ببعض الملامح التي يرغب برؤيتها.

يهيم علي على وجهه في دمشق يحمل حقيبته ويذرع شوارعها، لا يزال لديه في اجازته يومان لا يعرف أين سيقضيهما، لعله سيزور بعض الأصدقاء الذين يخدمون في دمشق، ولعله لن يفعل شيئا سوى المشي في هذه الشوارع.

جلس على الرصيف وراقب المارة، كل تلك الوجوه العابسة والمكفهرة غادرها الفرح كما غادره، ملامح البؤس جعلت كل الوجوه توائم.

_لماذا أبقى هنا؟ هذه الوجوه مقيتة كوجهي.

سأل علي نفسه وهو يرى ما ألم فيه في كل الوجوه العابرة.

_هذه المدينة لا تستحق هذه الوجوه.

وقف وأوقف سيارة أجرة وصعد بجانب السائق الذي ارتدى اللباس العسكري.

_الى أين؟

_مركز انطلاق الجنوب.

_انت تخدم في السويداء أو درعا؟

لاحظ السائق لهجة علي الساحلية وعرف أنه عسكري، فما الذي يأخذه الى كراجات الجنوب؟

_في درعا.

_ان الأمور هناك ليست على ما يرام، لقد كنت هناك لمدة سنة ونصف، بعدها دفعت المال وانتقلت الى هنا، وأخدم الآن حرس على باب الجامعة

_جيد.

قال ذلك علي راسما على وجهه ابتسامة ساخرة

_انت تسخر بالطبع؟ لا يؤلم الجرح الا صاحبه.

أشعل السائق سيجارته، نفث دخانه غاضبا ثم أكمل:

_أنا متزوج ولدي أربعة أطفال، كيف عساه أن يكفيني الراتب الذي تعطيه لنا الحكومة، أقسم كل شهر أشعر أنني متسول، أنت هل يكفيك الراتب؟ ها أجبني؟

استمر علي بالصمت لم يرغب بقول شيء، وجل ما أراده هو الوصول وانتهاء هذه الثرثرة التي لا طائل منها.

_ثم لو فرضا كان الراتب يكفي، هل علي أن أموت وأترك أولادي ينهشهم الفقر، أم أنك تعتقد أن تلك القروش، مال التعويض يكفي لشهرين فقط؟ وكيف لزوجتي أن تربي الأطفال؟ هل.....؟

قال ذلك وضرب المقود بيده.

_استغفر الله العظيم.

_معك حق.

قال علي ذلك مخففا من حدة لهجة السائق:

_لو سنحت لي فرصة كهذه سأغتنمها بالتأكيد، أتمنى لك التوفيق في عملك وأن يديمك لعائلتك.

_والله لو أعرف أن هذا سيحدث لما تزوجت منذ البداية، يسمع الانسان كل يوم كلاما موجعا واتهامات كثر، لو كان الراتب يكفي وأعرف أن عائلتي لن تذل بعد موتي، لبقيت على خطوط النار، لا أحد أفضل من أحد، ليس الموت موجعا فالميت لا يشعر بشيء، ولكن الا يحق لك أن تفكر في مصير عائلتك؟ ماذا سيفعلون ليستطيعوا العيش؟ في المقابل ترى كل يوم أولاد التجار والمسؤولين، هل تعلم أنهم ينفقون في اليوم الواحد أكثر من راتبي وراتبك؟ ليس هذا فقط بل لا أحد يستطيع أن يتحدث معهم أو يسوقهم للخدمة، وإذا حصل ذلك يكفي الأمر مكالمة هاتفية واحدة لينتهي الأمر وكأنه لم يكن.

تحدث السائق بأمور كثيرة يعرفها الجميع الى أن أوصل علي الى مقصده، استقل الحافلة سريعا، نزل من الحافلة على الطريق ومشى الى كتيبته المقاتلة عبر طريق فرعي لمسافة ست كيلو مترات، وصل الكتيبة عند غروب الشمس، القى التحية على أصدقائه وأعتذر لمحمود كونه لم يمنحه دوره في الاجازة ليرى والده، لم يعر محمود انتباها للأمر وأخبره أن الأمر لا يستحق بعد أن أعطاه المال الذي ارسله له والده،

وعلم من زملائه عن مهمة خطيرة أختار القائد عشرة شبان منهم لتنفيذها، توجه على الفور الى مكتب قائده طرق باب المكتب ودخل وقدم التحية للقائد.

_أهلا يا علي اجلس يا بني، لقد عدت قبل أن تنتهي مأذونيتك؟

_هذا صحيح يا سيدي.

قال ذلك وجلس.

_الحياة لا تشبهني في الخارج، ليست على مقاسي.

_سينتهي الأمر قريبا وسيعود الجميع الى حياته الطبيعية، كل الأمور تجري على ما يسر، بما أستطيع خدمتك؟

_لقد علمت من الشباب عن مهمة أريد أن أكون من بين الأسماء المشاركة.

_ليس لديك أدنى فكرة عن خطورة المهمة، الشباب المشاركون سبق أن تدربوا في القوات الخاصة، رغم ذلك نسبة نجاتهم لا تصل العشرون في المئة.

_أرجوك يا سيدي أن تمنحني الإذن بالمشاركة.

_قرارك المشاركة في هذه المهمة بمثابة الانتحار فكر في الأمر، أنت لست مدربا على هذا النوع من المهام.

استغرب القائد الرغبة الملحة من علي ووضعه في ضوء المهمة بالكامل لعل خطورتها تثني من رغبته.

_أنا مستعد لذلك وان شئت سأكتب تعهد خطي بأنني ذهبت دون أخذ اذن من أحد، ولن تتحمل مسئولية قيامي بالأمر.

_حسنا كما تشاء سأضع اسمك في المهمة وستحصل على حقوقك جميعها في حال استشهادك، اذهب ونام كن جاهزا في الفجر.

وقف علي وحيا قائده.

_وهل يوجد أجمل من الشهادة؟ لقد حكم علينا من في الخارج بالموت قبل أن نموت، ليس علينا أن نخيب أملهم، شكرا يا سيدي

خرج علي من المكتب وتوجه الى خيمته، كان يشعر بفرح كبير في داخله، استلقى في سريره وأغمض عينيه ومرت صور كل من يعرفهم في مخيلته، وعلى تلك الصور أغمض عينيه وغط في نوم عميق، لن يحزن بعد اليوم، ليس هنالك وقت ولا شيء يستحق.

بعد مرور ثلاثين يوما.

تزف ليلى الى خطيبها، الجميع فرح عداها.

استغلت صديقاتها الموسيقى للتعبير عن طاقاتهن في الرقص، لعل واحدة منهن تجذب نظر احدى النساء، الجميع يكبر بسرعة والخوف من العنوسة أصبح أمرا واقعا.

انتهت تلك الأمور الاحتفالية ودخلت ليلى مع زوجها الى غرفتهما.

كانت طقوس الدخلة مقرفة مع شخص لا تعرفه، أحست أنها بائعة هوى، كادت أن تتقيأ، لم يلقي زوجها بالا للأمر، كان عليه أن يثبت فحولته منذ الليلة الأولى، ولم يراعي الجسد الناعم وما قد يحتاجه.

قال نزار قباني مرة، كالآلات تودي الفعل للفعل.

لم يكن الأمر كذلك، كان الفعل دون أدنى ردة فعل.

تمنت ليلى أن ينتهي الأمر سريعا، فقد كان الأمر هجميا بدائيا، بالفعل كان لها ما ارادت، ارتعش الزوج واستلقى بقربها كجثة هامدة وباردة، ثم غط في نوم عميق.

هي الأخرى جذبت الشرشف تغطي جسمها المرتعش والخائف كمن ارتكب الزنى، حاولت حبس دموعها قدر المستطاع لكنها لم تستطع، هي الآن وحيدة أكثر من أي وقت مضى.

هل هو وقت التفكير بالأمر؟

لا لقد فات الأوان على كل شيء، حتى الندم لم يعد متاحا وكان شهر الخطبة كله دراما لم تؤثر بأحد منهما.

في بيت أبو محمود اجتمع من تبقى في القرية على فرح أحمد، لقد تزوج ابنة عمته.

لم يحضر خطيب شهيرة الفرح، هو لا يزال يعمل في تركيا لتأمين متطلبات الزواج، بعد أن أرسل المال الذي جهزت به الغرفة التي سيتزوج بها، كان شيء قليل ولكنه يكفي لأن يترك شيء من البسمة على وجه شهيرة.

جلس أبو محمود في طرف الحوش على كرسي يراقب الشباب والفتيات الفرحين، ثم ينظر الى الكرسي بقربه.

لم يكن وحيدا هذه المرة، كانت زوجته تجلس هناك وتبتسم، وهو أيضا فعل الأمر ذاته، كان في الأمر مواساة لنفسه، هما الآن روحان والتقيا.

لم يحدث أحدا الآخر، كان الجميع يرقص ويدبك فقط، حتى العريس وعروسته جلسا ولم ينظرا الى بعضهما بل هربت عيونهم الى الناس التي تحتفل.

لم يستطع محمود الحضور كعادته، ليس هذا فحسب بل لم يسمعوا عنه شيء منذ تلك المهمة التي اشترك بها مع علي وبعض رفاقهم، ولم يعد أبو محمود يختلق الأعذار لذلك الأمر، هو ليس موجود الآن ليتحمل مسئولية الأمر، لديه الآن مسئولية أهم بالقرب من زوجته، لقد طال شوقهما وقد جازاهم الله خيرا عما صبروه.

لا أخبار عن محمود ولا صديقه علي.

لم تتزوج وداد حبيبة علي، هي حتى الآن بانتظار خبر منه، ولطالما اتصلت به وكان هاتفه خارج الخدمة، يبدوا أنه غير رقمه وطلب من أهله أن لا يعطوا رقمه لأحد، فقد طلبت منهم الرقم لأكثر من مرة وقد اختلقوا الأعذار ذاتها بعدم تواصله معهم منذ ذهابه.

يجلس رامي في مقهاه المعتاد يكتب على حاسبه المحمول، اقتربت جوري منه تحمل القهوة ووضعتها على الطاولة.

_لقد اشتقت اليك.

الفرح يغمرها برؤيته.

ابتسم رامي لها وأخرج من الحقيبة روايته التي قام بطبعها واهداها إياها.

فتحت على الصفحة الأولى وكما توقعت اهداء بخط اليد.

_شكرا لك، ستوصلني اليوم اليس كذلك؟

_ان كان لدي الوقت سأفعل ذلك.

_حسنا سأنتظرك.

غادرت تكمل عملها تنشر الفرح بابتسامتها الساحرة غيرت مزاج الجميع.

يجتمع عثمان وزينب وجلنار ومهند على الغداء، الضحك يملئ المكان، يبدوا أنهم اعتادوا الأمر ومن يراهم لا يشك لوهلة أنهم ليسوا عائلة واحدة، لذلك سأغادرهم فأنا أجلب الخراب حيثما حللت.

كل شيء بقي على حاله الى يوم

.

.

٢٥ \ ٥ \ ٢٠١٧ صلاح حمد

.....